صور ومظالم
من عصر المماليك

تأليف

دكتور
نظير حسان سعداوي

١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

فهرس الموضوعات

Images and injustice from the mamlouk'sage

By

N. H. Saadawi (Ph. D.)

Cairo — 1966

The Egyptian Renaissance Bookshop

9 Adle St. Cairo

مقدمة الكتاب

بقلم المؤلف

ورثت دول المماليك الثلاث ، وهى على التوالى : المماليك البحرية ، والمماليك الجراكسة ، والمماليك العثمانية . ورثت الدولة الأيوبية فى حكم الديار المصرية والبلاد الشامية نحو خمسة قرون (١٢٥٠ـــ١٧٩٨م) بدأت دولة المماليك بعد أن تنحت السلطانة الملكة شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب عن العرش لزوجها الأمير المعز أيبك التركمانى ، وانتهت بمجىء الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ م .

ويعرض هذا الكتاب صورا مختلفة عن حياة المجتمع المصرى المملوكى خلال تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، يمثل بعض هذه العصور الخير فى قوة واعمار ورخاء ، على حين يمثل البعض الآخر الشر فى ضعف وانحلال وفناء ، إذ ليس فى الدنيا خير محض ولا شر محض ، فكل منهما ينتج الآخر ويعقبه ، والمماليك فى حقيقة أمرهم لا يعرفون خيراً أو شراً وإنما يعرفون غرائز يطيعونها . وما الخير والشر عندهم إلا وسيلة لتنظيم المجتمع الذى يعيشون فيه لجعل حياتهم محتملة ، بعد أن تأقلموا بالبيئة المصرية

الفصل الأول

فوضى حكم المماليك

الفصل الأول

فوضى حكم المماليك

يقول التاريخ أن الأيوبيين الأكراد قدموا مصر مع صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٦٨ م تدعوهم مقتضيات الدفاع عن الإسلام ضد الصليبيين وأنهم انقسموا على أنفسهم بعد وفاة كبيرهم الصلاح، وتنازعوا فيما بينهم وفترت حميتهم وعصبيتهم على مر السنين وتوالى الأحداث، فاستعاض عنهم السلطان الملك الصالح أيوب بطائفة المماليك البحرية الذين أحرزوا النصر والفوز على القديس لويس التاسع ملك فرنسا فى معركة المنصورة الشهيره ١٢٥٠م، لكنهم اختلفوا مع الملك توراشاه بن الصالح أيوب وقتلوه على شاطىء النيل فى معسكره بفارسكور . وبمقتله انتقل الحكم من يد الايوبيين إلى يد المماليك الذين حلوا محلهم فى هذا الدفاع . والذين تحولوا بعد ذلك إلى التصدى للزحف المغولى حين بلغ العراق، وأطاح بالخلافة العباسية و بمقدساتها الدينية ، واتجه إلى الشام ومصر سنه ١٢٦٠ م . ومن ثم كثر قدوم المشارقة إلى مصر على رأى المقريزى[1] . وهبطها المماليك مختارين أوأسارى

---

(١) الخطط : حـ١ ص ٣٦٤ طبعة بولاق

أو متخطفين ، فى جماعات يرتفع عددهم حينا ، ويهبط حينا آخر ، يعطون أسيادهم عملهم وقت السلم وسيفهم وقت الحرب .

ولذا يعتبر مجىء المماليك إلى مصر خيرا ، لما بذلوه من ضروب الشجاعه والإقدام من أجل حماية الدين والحضارة الإسلامية والوطن العربى من الخطرين الصليبى الغربى والمغولى الشرقى ؛ وكذلك يعتبر مجيئهم شرا على البلاد والعباد ، لما جلبوه معهم من أنواع البلاء للمصريين ، لسوء أخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدّة جبروتهم ، خصوصا إذا صادف نزولهم مصر غلاء أو وباء ، أو انقطاع فى فيضان النيل ، فتتضاعف المضرة ، ويشتد الأمر والبلاء على الناس بالصورة التى يرسمها شاعر العصر ـ يومذاك ـ الأديب شمس الدين محمد بن دنيا فى قصيدته ، ومنها :

ربنا ! كشف عنا العذاب فإنا قد تلفنا فى الدولة المغليّة
جاءنا المغلُ والغلا ، فانسلقنا وانطبخنا فى الدولة المغليّة.[1]

لاغرابة إذن، أن يشكل تاريخ المماليك فى مصر والشام أكواما متراكمة من المصنفات والسجلات المليئة بالغموض والتناقض ، الناجمين عن طبيعة تكوين طوائف المماليك وطريقة تربيتهم وأسلوبهم فى الحكم ، وعن

(١) الخطط : ج٢ ص ٢٢

طبيعة تقاليدهم البدائية التى لم تكد تتهذب وتتأقلم بالبيئة المصرية المتحضرة حتى تغذيها موجات مغوليه جديده بعقليتها البدائيه وأمزجتها وطبيعتها غير المصقولة . فتفسد الموجات اللاحقة ما اكتسبته الموجات السابقة عليها من ألوان الثقافة والتحضر والتأقلم بالبيئة المصرية . ولا يعدم الباحث فى التاريخ المصرى المملوكى أن يعثر — فى زحمة المتناقضات وفى غلبة الأحداث اليوميه الصاخبه — على طرفة من الطرف الجميله ، أو نادرة من النوادر الشيقه ، أو أعجوبة من الأعاجيب المثيرة، التى لاتخرج عن كونها مجموعة من المرايا الصافية التى تصور حياة المجتمع المصرى المملوكى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا ، والتى تلقى ضوء اكشافا على مايجرى بداخله .

١ — أطفال سلاطين

ولعل نادرة تنصيب الأطفال على عرش مصر جديرة بأن تحتل مركز الصداره فى قائمة تلك النوادر والطرائف والعجائب التى تطفح بها كتب التاريخ المعاصرة لها ، إذ المعروف أن طائفة المماليك تتكون من الأجناد ثم الأمراء من مختلف الدرجات ثم السلطان . والأجناد والأمراء فى الأصل هم الذين ينصبون السلطان . ورغم محاولة بعض السلاطين الفحول أمثال

بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى . إقرار مبدأ الوراثة فى العرش فانهم أخفقوا تماما لرفض الأمراء أن يكون أبن أحدهم — الذى لم تحنكه التجارب ولم يشاركهم المحن — سلطانا عليهم . بل يجب أن تئول السلطنة إلى أكثرهم نفرا وأعزهم جاها ، وأسخاهم وعدا وعطاء . وإذا كانوا قد أقسموا على الولاء لأبناء السلطان المتوفى ، فانهم يوفون بقسمهم ، وينصبونهم لمدة شهر أو سنه أو سنتين على أكثر تقدير ، حتى يحوكوا مؤامراتهم ودسائسهم فيعزلوهم ، ويسجنوهم وينفوهم أو يقتلوهم ، فى جو ملىء بالظلمة والغموض وصارت قاعدة قتل السلاطين أو عزلهم الوسيلة المفضلة للوصول إلى الحكم ، ومن ثم اتصف مجتمع المماليك بطابع الغدر والفتك والتربص والتآمر والشك والرشوة والتنوع فى العقاب على النحو الذى سوف يجىء فى الصفحات القادمة .

وقصة تنصيب الأطفال على عرش مصر مثيرة ومسلية ، فضلا عن كونها مبكية . فقد بلغ عددهم فى دولتى المماليك البحرية والجراكسه سبعة عشر طفلا ، منهم ستة أطفال تقل أعمارهم عن العاشره ، وإحدى عشر طفلا عن السادسة عشرة . وامتدت سنوات حكمهم جميعا إلى مايقرب من نصف قرن ، توقفت — خلالها — نبضات الحياه فى البلاد . وتعرضت أرواح العباد وأموالهم للازهاق والضياع والسلب . وانتشر القتال فى الشوارع

والطرقات من أجل الحكم والسيطرة . والأطفال السلاطين لاهون فى لهوهم ولعبهم ، الذى تنوعت أشكاله وطرائفه حسب هواية كل طفل ومزاجه ، بل حسب أمزجة المحيطين به من الأوصياء والمربيات . ولايفوت شعراء العصر أن يسجلوا فى شعرهم ظاهرة تولى الأطفال ملك مصر . فيقول أحدهم فى سخرية لاذعة .

ما للصبى وما للملك يكفله ... شأن الصبى بغير الملك مألوف (١)

وأصبحت هذه الظاهرة أكثر وضوحا وتكرارا بعد وفاة السلطان الكبير الناصر محمد بن قلاوون ، صاحب الإخبار الطوال فى الإنشاء والتعمير ، ورافع راية مصر عالية خفاقة بين رايات عصره . فلم يكد ولده كجك — وهو لفظ أعجمى معناه بالعربية صغير — يتولى الملك وهو دون السادسة حتى صار أمر الدولة بيد نائبه الأمير قوصون ، يعطى من يشاء ويمنع عمن يشاء . فكان إذا حضرت العلامة أخذ قوصون بيد كجك والقلم فى يده ، ويُريه كيف يكتب على المناشير . وتبعا لذلك اضطربت أحوال السلطنة والرعيه ، وتفرق شمل الأمراء ، وأخذوا يكيدون بعضهم بعضا ، وانصرفوا عن مراعاة أحوال المملكة ، وعن السير فى الطريق السوى الذى

(١) النجوم الزهرة : حـ٩ ص ٩

رسمه لهم السلطان الناصر محمد من قبل . وغشى الناس الظلم ، وعمهم القحط وأدركهم الغلاء والفناء ، وصور شاعر العصر ذلك الاضطراب والقلق فى قصيدة منها :

سلطاننا اليوم طفلٌ والأكابرُ فى

خُلف و بينهم الشيطان قد نزعا

فكيف يطمع من تغشاه مظلمةٌ

أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا .

وسرعان ما تسفر معارك الأمراء ومناوراتهم عن الإطاحة بذلك الطفل وجماعته ، والإتيان بآخر وبطانته ، فيمثلون دورهم فى صورة مغايرة لسابقيهم على مسرح السياسة المصريه . وها هوذا الملك المظفر حاجى بن الناصر محمد يجنح إلى لعب الحمام ، فينشىء له حظيرا على الدهيشة بالقلعة يركبه على صوارى وأخشاب عاليه ، ويملأه بأنواع الحمام التى رصد لها من الأموال ما مكنه من الانفاق على تجميلها وتزيينها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت . إذ عمل لها خلاخيل ذهب فى أرجلها ، وألواح ذهب فى أعناقها . وصنع لها مقاصير من خشب الابنوس ، وطعمها بالعاج والابنوس ، فضلا عن الغلمان الذين أقامهم بالحظيرة ودربهم على الطريقة التى يكفلون بها الحمام ويرعونها . وصار هذا الطفل السلطان لا يعرف الهزل من الجد ولا العبث من الصواب : فأعاد أرباب الملاعيب من

الصراع والثقاف والشباك ، كما أعاد جرى السعاة ، ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والقمار وغير ذلك من أنواع الفساد . وأكثر من الاجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف من الفراشين والمتعطلين وغيرهم . ويلعب مع العوام بالعصى . وإذا لعب مع الأوباش يتعرى ويلبس سروالا صغيرا ، ويصارع معهم ، ويحطب بالرمح والكرة . الأمر الذى نفّر منه الأتقياء من العلماء والطامحون من الأمراء ، فحاربوه وقتلوه[1] .

وجاء ولده المنصور محمد بن حاجى صورة من أبيه ، فيرث عنه اللهو واللعب والفساد ، أتدرى ماذا كانت هوايته ؟ ... كان يدخل بين نساء الأمراء ويمزح معهن ويعمل مكاريا للجوارى ويركبهن ويجرى — وهو السلطان صاحب العرش — وراء الحمار بالحوش السلطانى . ليس هذا وفقط ؟ بل كان يأخذ زنبيلا فيه كعك ويدخل بين النساء ، ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المماجنة . ثم ما هو أعظم من ذلك ! كان يفسق فى حريم الناس ويجلس على كرسى الملك جُنُبا ، فاتفقت كلمة الأمراء على خلعه[2] .

وصورة أخرى من صور الطيش والعبث التى مارسها أولئك الصبيه

---

(١) النجوم الزاهرة ﺣ١٠ ص ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ، ١٩١ — ابن اياس ﺣ١ ص ١٨٨

(٢) النجوم الزاهرة ﺣ١٠ ص ٧

من السلاطين يقوم بتمثيلها الناصر فرج، ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.
كان يشرب الخمر إلى نصف الليل، ثم يخرج إلى الحوش السلطانى بالقلعة
وهو سكران فيعرض المماليك الذين فى السجن بالأبراج، فيحضرونهم
فى زناجير، يقدمون اليه واحدا بعد واحد، فيقولون له هذا فلان من
الطبقة الفلانية. فيقول قدموه، فيبطحونه على الأرض فيذبحه بيده،
ثم يدوس على وجهه برجله، وربما كان يبول عليهم أو يصب عليهم
النبيذ. وبلغ مجموع من ذبحهم من أولئك المساكين نحوا من ألفى
مملوك، يقتل فى كل ليلة منهم نحو عشرين [١]

أما الناصر محمد بن قايتباى الذى تسلطن وعمره أربعة عشر عاما
فقد فاق سميه الناصر فرج فى طيشه وعبثه وارتكابه الفواحش، إذ
يروى عنه أنه أخرج سبعة نفر من المحابيس، ووسّطهم بيده فى الحوش
السلطانى بالقلعة، وعلمه المشاعلى [٢] كيف يوسط، ثم مثل بهم، فقطع
أيديهم وآذانهم وألسنتهم بيده، والمشاعلى يعلمه كيف يصنع

وأصدر هذا السلطان الماجن من الأوامر الخارقة المقيده للحريات مايدل
على الخفة والجنون، فمنع الناس من الخروج ليلا إلى الشوارع، وإذا رأى أحدا

---

(١) ابن اياس . بدائع الزهور حـ١ ص ٣٥٣
(٢) الشخص المكلف بأعمال الإضاءة .

يمشى يقطع أذنه مع أنفه، ومنهم من يُضرب بالمقارع، ومنهم من يوسَّط،
فقتل من الناس جماعة كبيرة فى مدة يسيره

وسمع الناصر محمد بن قايتباى يوما عن امرأة حسناء جميلة، فطلع
لها من الطاقة وهجم عليها وأخذها غصبا، وضرب زوجها بالمقارع فى
وسط بيته، وقطع دائرة فرجها فى بربرية قاسية، ونظّمه فى خيط أعده
لنظم فروج النساء. وأمسك يوما بجارية جميلة، وأغلق عليها الباب
وربطها، ثم شرع يسلخ جلدها عنها كالجلادين، وهى حية تصرخ وتستغيث.
وشفعت لها أمه ومن معها وقوفا على الباب فلم يستجب لشفاعتهم، وظل
بالجارية إلى أن سلخها وحشا جلدها بالثياب. ويخرج يظهر لمن على الباب
استاذيّته فى السالخ، ويفتخر بقوله ان الجلادين يعجزون عن كماله
فى صنعه [١] .

ومن طريف ما يذكر عن أحد أولئك الأطفال السلاطين، وهو
الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ المحمودى، البالغ من العمر سنة واحدة
وثمانية أشهر وسبعة أيام، أن الأمير ططر مدبر مملكته طلب من الخليفة
العباسى أن يبايعه بالسلطنة بعد وفاة أبيه، فرفض الخليفة إجابة الطلب
لصغر سن الطفل، لكنه عاد فأكره على مبايعته، واعترضت البلاد

---

(٣) العماد : شذرات الذهب حـ٨ ص ٢٣ — ابن اياس حـ٢ ص ٣١٨، ٣٣٨، ٣٤٥.

الشامية على جلوس طفل رضيع على عرش السلطنة ، وأظهر نائب الشام العصيان وأعلن الثورة والانفصال . ومضى الأمير ططر فى إتمام مراسيم سلطنة الطفل . فلما أجلسه على سرير الملك استوحش الطفل من مرضعته وبكى ؛ فأُجلست بجانبه ، وقيل وُضع فى حجرها . ثم دُقت الكوسات فى القصر على غفلة ، فارتعب الطفل وصرخ ، واضطرب اضطراباً شديداً وأغمى عليه ، وحصل بعينه خَلَلٌ من الرجفة وقيل حَوَل ، ولم يلتفت إليه أحد إذ ذاك لكثرة الغوغاء، وانشغال الأمراء بتقديم فروض الولاء له، من تقبيل يديه ، والركوع له ، وتقبيل الأرض بين يديه ، حسبما جرت عليه عادة المماليك ..

وخرج الأمير ططر بتجريدة إلى الشام لإخماد الثورة ، وتأديب العصاة. واصطحب معه السلطان الطفل فى محفّة ، ومعه مرضعته وأمه خوند سعاد التى تزوج بها ططر فى الطريق ليصعد عن طريقها إلى السلطنة ، ونجح ططر فى إخضاع الثائرين بدمشق المحروسة وإقرار سلطنة الطفل اليتيم ، وأخذ يعطى ويمنع ويقرب ويبعد فى المملكة من شاء . ثم عاد الموكب السلطانى إلى القاهرة بعد أن دبر ططر فى دمشق خلع الطفل من السلطنة بعد سبعة أشهر وعشرين يوماً ، وطلّق أمه خوند ، وتسلطن هو ، وزج بالطفل فى السجن مع أخيه الصغير ابراهيم بن شيخ ، والمرضعة والدّادة .

وظل الإخوان معاً فى السجن إلى أن ماتا بالطاعون[1] . والطريف فى هذه القصة أن يُمنح الطفل من باب التفخيم والتعظيم لقب « الملك المظفر » فأى ظفر أحرزه هذا المسكين ؟ .. أهو إخماده فتنة الدماشقة وثورتهم على سلطنته .. أم نجاحه فى تطليق أمه من مدبر مملكته ططر . حقا أنها مسرحية ساخرة مبكية ؟

٢ — سلطان العبيد

وما دام سلاطين المماليك وأمراؤهم يسرون عن أنفسهم بين الحين والآخر بتلك الصور الهزلية الفكاهية ، فما أحوج خدمهم وعبيدهم الذين يشعرون بالامتهان والذل وسأم الحياة ، ما أحوجهم إلى خلق جو إنطلاقى ملؤه اللهو واللعب كما يفعل سادتهم . لِمَ لا تكون لهم دولة كدولة السادة ؟ لِمَ لا يكون منهم السلطان والأمير والوزير والكاتب وغيرها من الرتب السلطانية ؟. إن حياتهم اليومية المتكررة تهيىء لهم فُرصة إقامة مثل تلك الدولة . فهم يصبحون ويُمسون يومياً فى أعداد غفيره ، لا شاغل يشغلهم سوى خيول سادتهم ، يرعونها فى المرعى نهاراً ، وفى الاصطبلات ليلا .. توجهوا فى ربيع عام ٨٤٩ ﻫ (١٤٤٥م) بخيول أستاذيهم إلى بر الجيزة وإمبابة، وأقاموا هناك مدة يسيره، يلهون و يعبثون، والأمراء عنهم لاهون،

(١) ابن حجر: المنهل الصافى: ﺣ١ ص٢٩٧ ، ٢٩٩ — ابن اياس ﺣ٢ ص ١٠ ،

حتى كان شهر ذى القعده فأظهروا العصيان ، ونصبوا عبداً من بينهم سلطاناً عليهم ، ورتّبوا له أرباب دولة وأرباب وظائف ، وولّوا نائب الشام ونائب حلب . وصار هـذا السلطان يحكم فيهم بما شاء ، ونصبوا له تختاً يجلس عليه ، وحوله الوزير والأمير الـكبير والدوادار ، ويركب وعلى رأسه صنجق أصفر ، وحوله جماعة من العبيد نحو من خمسمائة . فصاروا يفسدون هنا وهناك ، وينهبون ما يمر عليهم من غلال وحمير وإبل وماشية وغير ذلك ، فحصل للناس منهم غاية الأذى ، وعظيم البلاء ، وبقى سلطان العبيد يفعل ما أحب ، يصدر الأوامر بالقبض أو الحبس أو القتل على من يشاء ، والضرب على من يشاء ، ولا يقدر أحد على ردّه حتى تصدّى له رجل آخر من العبيد وخالف أمره ، وكون حزباً معارضاً له ، وحشد كل منهما أنصاره ، واقتتل الحزبان ، وانتصر الذى تسلطن ، وحكم على الذى خالف وعارض ، ووسّط جماعة من طائفته ؛ ولم يقـدر أستاذ العبد المقتول أن يتكلم ، وقيل إنه توجه إلى دولة العبيد بامبابه ، وكلم العبد المتسلطن معاتباً مستنكراً فعلته ، واختلفت الرواية حول ما جرى بينهما ، فمن الناس من قال إن سلطان العبيد رَامَ أن يوسِّط أيضاً أستاذ العبد المقتول ، ومنهم من قال أنه أرضاه فى ثمنه على قول مؤرخ معاصر (٢) .

(١) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور حـ١ ص ١٩

ولما علم سلطان البلاد وقتذاك، وهو الظاهر جقمق بقيام سلطنة العبيد فى امبابه واستفحال خطرها ، عيّن جريده ـ أى جماعة ـ من مماليكه السلطانية ، عَبرت نهر النيل إليهم ، واشتبكت مع سلطنة العبيد فى معركة فاصلة، أنزلت بهم خسائر فادحة بين قتيل وأسير ، وأسرت سلطانهم، ورسم السلطان جقمق بالمناداه فى القاهره بأن كل من كان له عبد كبير يطلع به إلى باب السلسلة بالقلعه ، ويقبض ثمنه اثنى عشر ديناراً ، فامتثل الناس ذلك ، واشترى السلطان منهم جماعة ووضع فيهم القيود ، وأرسلهم إلى بلاد ابن عثمان بآسيا الصغرى . ورسم ببيعهم هناك ، وقطع بذلك جادرة العبيد الشناتره من مصر على قول ابن إياس (١) .

وهكذا، قضى السلطان جقمق على دولة العبيد المزعومة ، وأخمد فتنتهم التى لم يسمع بمثلها فى سالف الأعصار ، والتى تعتبر من النوادر الفكاهية فى العصر المملوكى ، والتى ظنها بعض أكابر الدولة « أمر فُشار ، إذا فرغ الربيع تفرّق كل منهم إلى حال سبيله » على قول ذلك المؤرخ المعاصر (٢) .

ومهما يكن من سلطان العبيد فإن حركته ذات دلالات تاريخية هامة ، إذ تكشف عن الكبت والحرمان اللذين تعانيهما تلك الطبقة فى

(١) بدائع الزهور حـ٢ ص ٢٨ — الخطط التوفيقيه لعلى مبارك حـ١ ض ٤٥
(٢) منتخبات: حـ١ ص ١٩

المجتمع المملوكى ، فضلا عما تقاسيه البلاد عامة من فاقة وفوضى وفرقة وفساد ، منذ أن ولى شئونها أولئك الأسافل من الوافدين الأرازل ، الذين أخلوا بأبسط مبادىء الحكم العادل السليم ، فأساءوا إلى السلطنة بتنصيب الأطفال على عرشها ، وإلى الوزاره بتوليها لمن لا يقرأ ولا يكتب ، من أمثال السيد محمد البباوى اللحّام الذى كان طباخاً أمياً ، ثم اشتغل معاملا فى اللحم من جملة المعاملين ، وهو المعروف عنه أنه لا ذات له ولا أدوات ولا كتابة ولا فضيلة ولا ملق ولا بشاشة . ورغم هذا استوزره السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٣م)، فتعجب الناس أشد العجب، وشاعت قولتهم عنه : « الزّفر تولى الوزاره بمصر » . وقيلت فى وزارته عدة نكات وأهجاج ، منها :

تبدلت المحاسن بالمساوئ ... بمصر وقد تولاها البباوى

وزيرا، وهو قمرُ الدستِ وجها ... قبيحا فى حضيض الجهل هاوى [١]

وحين غرق البباوى فى النيل عام ٨٧٠هـ (١٤٦٥م) ظن معاصره المؤرخ ابن تغر بردى أنه لا يلى الوزارة ـ هذه الوظيفة الجليله ـ بعده أقبح وأوضع منه، فإذا هى تكون من نصيب بعض غلمان البباوى، ومنهم اثنان: الصاحب قاسم شغيته أو جغيته وعبد القادر الطويل ، وكلاهما من أجلاف العامه

(١) منتخبات : حـ٣ ص ٤٤٠ ، ٥٨٠ ـ بدائع الزهور حـ٣ ص ٨٧

الأوباش ، فأولهما كان بائع خبز ، وشُهِّر به فى شوارع القاهرة لارتكابه عدة جرائم تموينية ، ثم التحق بوظيفة كتابية فى أحد محال الجزارة ، حتى رقاه البباوى إلى وظيفة مباشر بالدولة ، أما ثانيهما فلا يعرف أصله . وسعى كل منهما سعيه لتولى الوزارة ، ونالها قاسم ، أما عبد القادر فعين ناظر دولة [١]

وفى سنة ٩٢٧هـ (١٥٢٠م) وقعت حادثة طريفة بين الصبيان الصغار الذين يلعبون فى بعض الحارات ، تكشف عن فوضى حكم المماليك وعن فقدان الأمن والنظام ، وخلاصتها أن اتفق الصبيه أثناء لعبهم على تنصيب أحدهم ملك الأمراء ، وتنصيب آخر والى القاهرة ، ونادوا ألا يخرج أحد من منزله من بعد العشاء ، وصاروا يمزحون و يعبثون ، فخطف بعضهم عمامة آخر ، فشكوه إلى ملك الأمراء ، فأمر بالقبض عليه واحضاره ، ثم رسم لوالى القاهرة بأن يخوزقه ، فدقوا له عصا فى الأرض، وأقعدوه عليها غصبا حتى مات فى وقته [٢]

(١) بدائع الزهور حـ٢ ص ٢٨٦

(٢) شرحه: حـ٣ ص ٢٣٣

٣ — عندما يُعزل السلطان

يصدق المثل القائل : « على قدر الصعود يكون الهبوط » على سلاطين المماليك ، إذ لو لم تكن العلانية و إقامة الزينات والأفراح عند تنصيبهم ، ما كان الكتمان والمؤامرات والصياح عند خلعهم ، جرت عادة تنصيبهم أن يتفق كبار الأمراء على من يتسلطن على العرش ، ثم يدعون الخليفة وقضاة المذاهب الأربعة — المالكى — الحنفى — الشافعى — الحنبلى — لمبايعة السلطان و إصدار صورة شرعية بذلك . وتصدر المناشير والمربعات باسم السلطان الجديد ولقبه إلى الديار المصرية والشامية والحلبية . يلبس السلطان شعار السلطنة وهى جُبّة سوداء بالطرز الذهب ، وشاش أسود ملفوف عمامة ، و بيده سيف بداوى أو حمائلى . ويركب فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، ويحمل أتابك العسكر على رأس السلطان مِظَلّة من حرير أطلس مزركش ، على أعلاها طائر مزركش بالفضة ، ويمشى قدام السلطان الأمراء قاطبة والخليفة عن يمينه ، و يسير الموكب من الحوش السلطانى بالقلعة حتى يطلع باب القصر الكبير بها ، فينزل عن فرسه و يجلس على سرير الملك حيث توضع بين يديه شارة السلطنة وهى خنجر مُقوس شبه السيف القصير « النَّمجَاة » والترس والدواة ،

ويقبل الأمراء كبيرهم وصغيرهم بين يديه الأرض ، ثم يتقدمون إليه ويقبلون يده على قدر رتبهم ، وتدق له البشائر فى القلعة ، وتقام الزينات والأفراح والمتفرجات فى البلاد المصرية والشامية سبعة أيام ، وتمد الأسمطة لإطعام الخاص والعام .

ولم يكد السلطان الجديد يباشر سلطاته حتى يبدأ فى شراء مماليك جدد ليدفع غائلة الأمراء الذين سلطنوه ، والأمراء من ناحيتهم يتربصون به ، حتى إذا ما أذنت الساعة ، حيكت المؤامرات ، وأغلقت الابواب ووثبوا على السلطان وفتكوا به أوخلعوه على مرآى من مماليكه وخدامه وحريمه ، وعلى مسمع من صراخهم وعويلهم ونحيبهم ، على نحو ما حدث يوم أن خلع السلطان برقوق ، إذ قبض على زوجاته ، وسحب جواريهن سبايا بشوارع القاهره ، وهن فى بكاء وعويل حتى أبكين الناس [1] .

وحسبك أن تعرف ماجرى للسلطان المنصور عثمان بن خشقدم بعد أن خلع عن العرش سنه ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م.) فقد أنزله الأمراء من القلعة مقيدا فى وسط النهار ، راكبا على فرس ومن معه من حاشيته على أكاديش ، أى بغال والعسكر من الأمراء والخاصكيه حوله بالرماح والسيوف وآلات الحرب ،

(١) النجوم : الزاهرة حـ ١١ ص ٣١٦ .

والعامة مزدحمه على التفرج عليه . واخترق موكبه شوارع القاهرة على تلك الهيئه المحزنه حتى وصل شاطىء النيل ، فأنزلوه إلى المركب وسفروه إلى سجن الإسكندريه . وهذا شىء لم يعهد المعاصرون مثله ، فلم يروا من قبل سلطان مصر ينزل على هذه الصوره ، وكان ذلك عبرة المعتبرين ، فبعد أن كان الناس بأجمعهم له طائعين ، ولأمره سامعين فصار فى أيديهم كالأسير ، ليس له من الحكم شىء قل أو كثر ، حتى ولا حكمه على نفسه ولمؤرخ معاصر تعليق على هذه الصوره النادره المثيره نصه « فانظر إلى هذه الدنيا مع ملوكها والمغرمين بها ، ترفع أحدهم إلى الأوج ثم تنزله إلى الحضبض ، وهم راضون بأفعالها ، صابرون على مقتها »[1] .

ومهما يكن من نادرة خلع السلطان المنصور عثمان بن خشقدم والتشهير به فى شوارع القاهرة وعلى سطح نيلها ، فإن واقعة السلطان طومان باى الثانى مع الفاتح العثمانى سليم الأول لم يعهد مثلها فى تاريخ ملوك مصر ، لما أثارته فى النفوس من انفعالات وهزات عنيفه . ذلك أن طومان باى كان شابا يافعا ، حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، شجاعا بطلا ، تصدى لقتال سليم بن عثمان دفاعا عن وطنه ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، ودوخ العدو وكسره ثلاث مرات ، وقتل منه ما لايحصى ، مع أنه فى قليل من عسكره «

(١) ابو المحاسن : منتخبات حـ٣ص ٧٠٧ ، حـ٢ ص ١٧٨

ووقع منه أمور لم تقع من الأبطال الصناديد . . . ورغم هذا لم يخدم الحظ طومان باى فى حركاته مع سليم ، إذا دارت عليه الدوائر وحلت به الهزيمة ، فركن هاربا إلى الشيخ حسن بن مرعى لما بينهما من صداقة قديمة ، وحلف الشيخ على المصحف أنه لايخونه ولايغدر به ، ولكنه حنث فى يمينه وأعلم سليم عن مخبئه . . فماذا جرى لطومان باى ؟

ذهب جماعة من عسكر سليم بدلالة الخونة الشيخ حسن بن مرعى وخاير بك والغزالى ، وقبضوا على طومان باى ، وجعلوا يده اليمنى فوق اليسرى ، وربطوهما من قدام كما جرت العاده على الأعيان ، وأوثقوهما . وأركبوه بغله ، وقيدوه من تحت بطنها ، وهو لابس مثل لبس العرب الهوارة ، وعلى رأسه زنط وعليه شاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال . وأحاطت به العسكر ، وجدوا فى السير به إلى حيث يوجد سليم فى معسكره بجهة أمبابة الحالية . . وهناك أدخل طومان باى من بين العساكر العثمانية المنتصره التى بلغت من الترتيب والتنظيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت[1] .

ولما وقعت عين سليم على طومان باى قام له ورد عليه السلام ، ثم عاتبه على استماتته وعناده فى الدفاع عن مصر ، فأجابه أن الله تعالى قد أجاز له ذلك ، إذ قال وهو أصدق القائلين « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما

(١) راجع آخرة المماليك لابن زنبل ص ١٣١ ومابعدها

اعتدى عليكم » . وتأثر سليم من قوة دفاعه ، وكاد يصفح عنه لولا همس الهامسين وكيد الخائنين ، الذين خوفوا سليم من عاقبة إطلاق سراحه فرسم بشنقه على باب زويله . . . .

وفى يوم الإثنين الموافق ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر ، أى يوم شم النسيم ، جاءوا له بالبغلة وأركبوه عليها وقيدوه من تحت إبطها بالحديد ، وعبروا به النيل من امبابه إلى ناحية بولاق ، حيث تحرك موكبه إلى المقس وقدامه نحو أربعمائة عسكرى عثمانى عدا رماة النفط . ثم طلع من جهة سوق مرجوش الذى يبتدىء حالياً من شارع السكاباتى وينتهى عند أول شارع الشعرانى ، وشق القاهرة حتى وصل إلى باب زويلة . وجعل طومان باى يسلم على الناس طول الطريق وهو لايدرى مصيره. فلما أتوا به إلى باب زويلة أنزلوه عن بغلته ، وأرخوا له الحبال ، ووقف حوله العثمانية بالسيوف مسلولة ، فلما تحقق أنه سيشنق وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : اقرءوا لى الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ، ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك ، فلما وضعوا الخية فى رقبته ، ورفعوا الحبل انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع الحبل به مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياه

جوخ أحمر ، وفوقها ملوطة بيضاء وبأكمام كبار ، وفى رجله لباس من جوخ أزرق ، فلما شنق وطلعت روحه انقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء والصياح ، وصرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، وبكت عليه الأرامل والأيتام ، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى فاحت رائحته ، وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتاً ووضعوه فيه ، وتوجهوا به إلى مدرسة عمه السلطان الغورى ، فغسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت دولته كأنها لم تكن .
وقال فيه ابن إياس[١] أبياتاً منها :

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولى وزال كأنه لن يذكرا
شنقوه ظلماً فوق باب زويلة ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يا رب فاعف عن عظائم جرمه واجعل جنان الخلد رب له قرى

وهكذا لم يسمع بمثل هذه لواقعة فيما تقدم من الزمان ، أن سلطان مصر يشنق على باب زويلة .

ترى هل اتعظ من جاء بعد طومان باى من ملوك مصر وتذكر الدرس ووعاه فى جده ؟ وهزله ؟

(١) بدائع الزهور : جـ٣ ص ١١٤ – ١١٦

الفصل الثانى

فساد وجهل وعقاب

---

١ — الرشوة

٢ — شهادة الزور

٣ — بِدُورَة الحسينية

٤ — القاهرة بلا ماء .

٥ — ياسلام سلم .

٦ — حادثة قليوب ابيار .

٧ — عقوبات .

الفصل الثاني

فساد وجهل وعقاب

الأمراض الاجتماعية قديمة قدم المجتمعات البشرية ، عرفتها مصر كغيرها من الدول فى مختلف عصور التاريخ ، لكن انتشارها فى العصر المماليكى بشكل فاضح وعلى نطاق واسع بين الحاكم والمحكوم ، و بين أهل الدين وأهل الدنيا ، جعلها من السمات البارزة لهذا العصر رغم اعتباره – فى عهود ازدهاره – عصر الإيمان والذود عن الإسلام ، و إليك عينات من صور الانحلال الخلقى ومدى ما يُعزى إلى المماليك من تبعات ومسئوليات :

١ – الرشوة :

لا جدال أن المال هو أصل البلاء فيما يشاع من زور و بهتان ، وفساد وانحلال بين الخاص والعام ، وهل هناك أعجب من أن تقرر حكومة البلاد الشرعية الرشوة ، وتُنشىء لها ديواناً خاصاً يُعرف بديوان البَذْل أو البِرْطيل على عهد السلطان الملك الصالح اسماعيل بن الناصر بن قلاوون عام تولّيه العرش سنة ٧٤٣هـ ، (١٣٤٢م) ولم يتجاوز السابعة عشرة من عمره . وشاع خبر إنشاء هذا الديوان ، وانتشر فى طول البلاد وعرضها ، فصار من له

حاجة يأتى إلى صاحب الديوان المذكور ، و يبذل فيما يرومه من الوظائف على قول أبى المحاسن(٤) . وكثر فى أيامه تبعاً لذلك استيلاء الجوارى والخدام على الدولة ، وعارضوا نائب السلطنة فى أمور كثيرة ، حتى صار النائب يقول لمن يسأله شيئاً : « روح إلى الطواشى فلان فيقضى شغلك » وأعرض السلطان اسماعيل عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين ، حتى كان إذا ركب إلى سرحة سرياقوس أو سرحة الأهرام ركبت أمه فى مائتى امرأة الأكاديش بثيابهن الأطلس الملون ، وعلى رءوسهن الطراطير الجلد البرغالى — أى المصنوع من جلد الفرس والمبطن بجلد الذئب — المرصعة بالجوهر واللآلىء ، و بين أيديهن الخدام الطواشية من القلعة إلى السرحة ، ثم تركب حظاياه الخيول العربية ، ويتسابقن ويركبن تارة بالكامليات الحرير ويلعبن بالكرة ، وكانت لهن فى المواسم والأعياد وأوقات النزهة أمور من هذا النموذج(٢) .

غير أن بويضات هذا التشريع الديوانى الغريب لم تفرخ جراثيمها الفاتكة بالمجتمع إلا بعد تطاول الأسافل من المماليك الأجلاب على أصحاب العرش من بيت قلاوون ، ونصبوا أنفسهم أتابكة للأطفال السلاطين ، ثم تجرأوا فاغتصبوا السلطنة لأنفسهم ، وكان الأتابك برقوق هو المسئول

(١) النجوم الزهره : ح١١ ص ٢٩٢
(٢) شرحه ، ح١٠ ص ٩٠ ، ٩٦

الأول عن هذا التحول السياسى الاجتماعى الخطير فى الدولة المملوكية ، إذ لم يكد برقوق يتسلطن حتى تجاهر الناس فى أيامه بالبراطيل ، فلا يكاد يولى أحداً وظيفة ولا عملا إلا بمال ، فأفسد بذلك كثيراً من أحوال المملكة ، واشتهر هو نفسه بولعه فى جلب الأسافل والسوقة وتقديمهم على ذوى البيوتات والأصول ، والتنكيل بالأخيرين ومصادرة ما يملكون من صامت وناطق دون ما ذنب يرتكبونه . ومن ثم تضاعف هذا البلاء حتى خرج عن الحد ، وصار ذوو البيوت تَميرة على قول معاصر(١) . وأصبحت القاعدة المرعية فى التوظف والترقى السفالة والرشوة ، وبهما استطاع المرء فى تلك الأزمان أن يصل إلى مايشاء على قول العينى المؤرخ المملوكى المشهور(٣) . صاحب مخطوطة «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» .

هذا هو الأصل والأساس التاريخى لمرض الرشوة المعروف والمنتشر فى المجتمع المصرى حتى اليوم ، جعله كبار الدولة المملوكية أمراً مقنَّناً ، وشيئاً مشروعاً ، صالوا وجالوا فى ميدانه ، فيقصد عدة من أطراف الناس باب الوزير منجك سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) للسعى فى الوظائف بمال ، فلا يرد أحداً منهم ، ويكثر طعن الأمراء فيه بسبب ذلك دون مجيب أو محاسب ، ولايجهل قراء التاريخ نوادر ووقائع برد بك دوادار السلطان إينال صاحب

(١) شرحه . ح١١ ص ٢٨٦
(٢) شرحه : ح١٠ ص ٩٠ ، ٩٧

الفنون المشهورة فى الأخذ والبلص والبرطيل ، كما لا ينسوا مبلغ العشرين ألف دينار التى اشترى بها الأمير يلباى الإينالى نيابة صفد سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٦م.) ، فضلا عما اجتمع له من الوظائف التى تولاها بمال فى وقت واحد وعددها أربع ، هن : دوادارية السلطان بدمشق ، ووظيفة ناظر الجيش ، ووظيفة عداد الغنم ، ووظيفة النظر على وقف الأشرف قايتباى بالشام . وكثير غيره ممن تولى خمس أو ست وظائف فى وقت واحد .

ولم يعترض رجل الدين على إقرار قانون الرشوة ، بل باركه ومارسه ممارسة أكثر شرعية. ففى سنة ٨٨٥هـ(١٤٨٠م). يسعى القاضى رضى الدين الغزى فى القاهرة عند القاضى قطب الدين الخيضرى فى تولى نيابة القضاء بدمشق مقابل مبلغ ذهب تسعمائة . دفع شيئا وكتب الباقى عليه إلى المغل بحجة. فهل هناك من فساد أفظع من أن تكون الرشوة على هذه الصورة المبتذلة فتسجل بحجة وعقد ـ كعقد الزواج أو البيع — ويوقع عليها رجل وظيفته أصلا أن يأمر الناس بالمعروف وأن ينهى عن المنكر وعن أكل أموال الناس بالباطل . . أما القاضى الشافعى فى دير زيتون بالشام فقدم الرشوة على شكل هدايا بقصد دفع شر الحاكم وآذاه ، حين بعث إلى نائب المدينة المملوكى سنة ٩٠٤هـ(١٤٩٨م.) بكميات وافرة من قراصيا وسكر وتحف سنيه تحملها عدة بغال[١] . ولعل هذا كان أصل المثل الدارج القائل « اطعم الفم تختشى العين » إن ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية

(١) ابن طولون جـ١ : ص ٣١٠ ، ٧٣ ، ٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦٢ ، ٤٣١ .

بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبه وسائر الأعمال هو أصل الفساد فى رأى المقريزى . إذ تخطى بالرشوة كل جاهل ومفسد وظالم وباغ ، وصار يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، فيمدون هم أيضا أيديهم إلى أموال الرعايا[١] . وهكذا صارت الوظائف تباع كما يباع الفرس والحمار ، وتورث كما تورث الأموال ، يأخذها الصغار والأطفال على حد قول الدلجى[٢] .

٢ — شهادة الزور :

ومادام انسان عصر المماليك يحصل بالمال على مايشتهيه ، فلم لا يستخدمه فى الحصول على شاهد الزور . ومن نوادر شهادة الزور القبيحة الشنيعة قضية رجل يسمى «منصور» تحامل عليه أهل الدولة عند السلطان خشقدم سنة ٨٧٠هـ (١٤٦٥م) . لحاجة فى نفسهم ، واتهموه بالزندقة ، وانه يبطن الكفر ويظهر الاسلام . وبذل خصومه جهدهم فى جمع الشهود ، حتى صار بعضهم يدور على الشهود وفى كمه الذهب ، ويعد من يطلبه للشهادة من عشره دنانير إلى مائة دينار ، فأجابت جماعة من الناس وشهدوا زورا ، إلا من عصمه الله من هذه الحادثة القبيحة التى لم يُرد بها وجه الله تعالى والشهادة . وضربت رقبة منصور وشفتاه ترددان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله[٣] .

(١) اغاثة الامة بكشف الغمه ص٤٣ الطبعة الثانية

(٢) الدلجى : الفلاكة والمفلوكون ص٥٠ .

(٣) منتخبات : جـ٣ ص ٥٢١

ولم يكن هناك من وسيلة لمحاربة ومواجهة ظاهرة انتشار الكذب وشهادة الزور سوى عقوبة التشهير والمناداة والتجريس . فإذا كان الكاذب أو شاهد الزور قاضياً نودى عليه « هذا جزاء من يُزوّر المحاضر » . أو « هذا جزاء من يتهرب من الشرع » .. أو يلصق بظهر القاضى وثيقة زواج مُزوَّرة ، ويطاف به ، وهو محسور الرأس . وقد قبض مرة على ابن الشيخ القاياتى ومعه حريمه ، وهم يتنزهون فى مركب ببحر النيل مع جماعة من الناس والرجال المفسدين ، فقام والى القاهرة بتشهيرهم على حمير ، وشق ذلك على جماعة الفقهاء ، واحتجوا على مافعله الوالى مع ابن شيخهم ، فشكوه للسلطان ، فزجرهم وقال لهم : « كيف يجلس ابن القاياتى بين العوام ، ويتهتَّك فى المتفرجات ، وأطلقه إلى حال سبيله » .

حدث هذا فى القاهرة ، أما فى دمشق فقبض على قاضى المالكية الشيخ على شمس الدين بن الطوالقى سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٢ م.) ، وَسِيق إلى مصر بعمامة صغيرة ، مصفر الوجه ، وقدامه جماعه ، وخلفه مماليك ، وبجانبه فارسان ماشيان عن يمينه وشماله ... وإذا روى أحد جلساء السلطان حديثاً مزوراً عنه نودى عليه « هذا جزاء من يكذب على السلطان » . كما حدث لرجل أعجمى اسمه أسد الدين الكيماوى ، أدخل فى روع السلطان جقمق أنه عالم بعلم الكيمياء ، وهو العلم الذى يبحث فى كيفية تحويل الفضلات الحيوانية والمواد المختلفة إلى ذهب وفضة ، وحصل على أموال كثيرة لعمل كيميائيات

من بعض حشيش ومعجون وجوز طيب . ثم تبين كذبه ، فرسم السلطان بالقبض عليه ومصادرة موجوده ، ووضع فى رقبته جنزيراً وباشتان ، وشهر ثم سجن بالبرج (١) .

ووقعت فى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م.) قصة طريفة ، وهى أن الشيخ جمال الدين السلمونى الشاعر هجا القاضى معين الدين بن شمس وكيل بيت المال بمصر هجوا فاحشا ، من جملة ذلك هذا البيت :

وحرفتُه فاقت على كل حرفةٍ ... يُركِّب ياقوتا على فص خاتمه (٢)

فشكا معين الدين السلمونى إلى السلطان الغورى ، فقال له السلطان إن وجب عليه شىء بالشرع أدبه ، فنزل معين الدين ووضع الحديد فى يد السلمونى ، وأتى به إلى بيت قاضى القضاه الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وادعى عليه ، فضربه عبد البر وعزَّره ، وأشهره على حمار وهو مكشوف الرأس . وقال بعض شعراء العصر فى واقعة السلمونى بيتين هما :

وشاعر قد هجا شخصا فحلَّ به ... من حاكم الشرع توبيخ وتعزيرُ

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك . ص ٩٧ ، ٦٧ ، ٣٩٣ – ابن طولون : ص ١٥٩ – ابن اياس : جـ ١ ص ٢٩٩ . منتخبات جـ ١ ص ٣٩

(٢) ابن طولون . جـ ١ ص ٣٠١

ويرى الأستاذ إبراهيم عزوز الشاعر والقصصى المعروف وأستاذ اللغة العربية بكلية المعلمين أن الوزن يستقيم لو كان البيت هكذا :

وحرفتُه فاقت لدى كل حرفة ... يركب ياقوتاً على فص خاتم

فأشهروه ، وجازوه بفعلته   تبًّا له شاعر بالهجو مشهور

فلما بلغ السلطان ما فعله القاضى معين الدين بن شمس بالسلمونى الشاعر شق ذلك عليه ، ووكَّل به وأمر بقطع لسانه ، لأنه قال السلطان رسم لى بأن أشهر السلمونى . ولم يكن السلطان رسم بذلك ، واستمر ابن شمس فى الترسيم مدة طويلة ، إلى أن رشى السلطان بمبلغ كبير من العملة الذهبية ، حتى رضى عليه وألبسه خلعة ، ثم أن السلمونى الشاعر هجا قاضى القضاة عبد البر بقصيدة مطلعها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها   ولم لا ، وعبدالبر قاضى قضاتها

ورغم ما تحويه القصة من طرافة وفكاهة ، فانها تصور بعضا من أمراض المجتمع المصرى المماليكى وقتذاك ، فضلا عن أنها تعبر عما يجيش فى النفوس من كبت وقلق ، وتبين من طرف خفى القيود المفروضة على حرية الفكر والرأى والنقد . كما تشهد على ممارسة السلاطين و بعض القضاة لرزيلتى الكذب والرشوة . وليس هذا سوى قليل من كثير طفحت به كتب التاريخ ، التى تشير إلى أمر عجيب وقع بمصر فى شهر رمضان من نفس العام السابق الذكر .

وهو أن شابا متصوفا ، تظاهر بالصلاح والتقوى يسمى محمد بن سلامه النابلسى الدمشقى . سافر من سنين مضت إلى بلاد الروم ، ثم عاد إلى دمشق وأدعى التدين وأشهر نفسه ، ثم غادرها إلى القاهرة ، وصحب جماعة من المتعطلين المتظاهرين بالعبادة والصلاح كذلك ، وشاعت كراماته وبركاته بين الناس ، إلى أن أراد الله إظهار حقيقته وما هو عليه ، فصحب أحد المردان كعادته بدمشق وغيرها . وأتى به قرب شهر رمضان فى زى بنت ، فى نقاب وجلباب مدلوك مخطوط ، إلى بعض مراكز الشهود بمصر ، وطلب أن يعقد نكاحه عليها ، فأجيب إلى ذلك . ثم بعد أيام وجدوه صبيا فى زى بنت ، فادعى أنه خنثى ، فكشف عليه النساء فلم يروه إلا ذكرا . فأمر الأمير طراباى رأس نوبه النوب بضربه بالمقارع واشهاره بمصر على ثور . ثم أعيد عليه الضرب و بعث به إلى السجن إلى أن مات . فزاد الناس فى قلة اعتقادهم فى المتصوفة[1] . ور بط المعاصرون بين ظاهرة انتشار الشذوذ الجنسى و بين ظهور حركة التصوف فى مصر المملوكية .

(١) ابن طولون: جـ١ ص٢٩٦ ، ٢٩٧.

٣ — بدُورَة الحسينيه :

وهذا الربط له دلالته التاريخيه عند المقريزى ، وهو يرسم بقلمه الصوره التى بواسطتها نقل المماليك مظاهر الانحلال إلى المجتمع المصرى ، وذلك فى معرض حديثه عن موجة مغولية تعرف بالأويراتيه نزلت بغداد ، ولم يطب لها المقام بها ، إذ جرت لهم خطوب حركتهم إلى شمال الفرات على الحدود السوريه العراقيـه . وكتب زعيمهم طرغاى إلى سلطان مصر والشام آنذاك وهو العادل زين الدين كتبغا وكان من جنسهم : كتب يستأذنه فى الهجرة إلى الديار المصريه والشاميه فأذن لهم . وأرسل من دمشق من استحضر نحو الثلثمائه من أكابرهم للقدوم على السلطان . وخرجت القاهره لاستقبالهم ، فكان لدخولهم يوم عظيم . ورحب السلطان بالوافدين وأكرمهم ، فأنعم على مقدمهم طرغاى بإمرة طبلخاناه (رتبه فى الجيش يـكون لصاحبها طبلخاناة خاصة تدق كوساتها على بابه) وعلى اللصوص — على حد تعبير المقريزى — بأمرة عشرة . وأجرى على البقية الرواتب والأقطاعات ، وأنزلهم بحى الحسينيه حيث تفاعلوا مع ساكنى الحى ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم ، ونشروا بينهم من مظاهر الخلاعه والاستخفاف بالآداب العامه ما لم يكن معهودا من قبل ، سيما وأن بعضهم ظل على وثنيته ، ولم يكرههم السلطان على اعتناق الإسلام ، ولم يعترض على عدم صيامهم

شهر رمضان . ويصف المقريزى فى خططه أثر ذلك السلوك على الناس فيقول « وكانوا على غير الملة الإسلاميه ، وتظاهر بعضهم بدين الإسلام . ولم يصم البعض الأخر شهر رمضان عند حلوله . فشكا الناس للسلطان كتبغا ، فأبى أن يـكرههم على الإسلام . ومنع من معارضتهم ، ونهى أن يشوش عليهم أحد ، فشق ذلك على الناس » (١) .

ورغم هذا، فإن المقريزى يصفهم بالشجاعه والبطوله ، وأنهم يعانون لباس الفتوه وحمل السلاح ، كما يصفهم بجمال الصور وحسن القوام والمنظر، وكان يقال لهم البِدُوره .فيقال البدر فلان. والبدر فلان، مما جعل الأمراء يفتتنون بهم،ويتنافسون فى أولادهم من الذكور والأناث ، واتخذوا منهم عدة ، صيروهم من جملة جندهم وعشقوهم ، وجعلوهم محل شهوتهم .

ولم يقنع الأمراء بما كان من الأويراتيه بمصر ، فأرسلوا إلى البلاد الشامية يطلبون المزيد ، فتكاثر نسلهم فى القاهره ، وسرت عدواهم بين العام والخاص . واشتدت الرغبة من الكافة فى أولادهم على اختلاف الآراء فى الأناث والذكور . ووقع التحاسد والتشاجر بين أهل الدوله، حتى خلع السلطان كتبغا بسببهم من الملك سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) وقام بعده السلطان لاجين ،ففرق الاويراتية على الأمراء ،فجعلوهم من جندهم . وفاقت عمارات

(١) الخطط : حـ٢ ص ٢٢ ، ٢٣

حى الحسينية ـ بسببهم ـ على سائر أخطاط مصر والقاهرة ، وغدت الحسينية عامرة بالاسواق والدور ، وازد حمت شوارعها بالناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش وأصحاب اللهو والملعوب ، فيما بين الريدانية محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة إلى باب الفتوح ، فلا يستطيع الإنسان أن يمر فى هذا الشارع الطويل العريض طول هذه المسافة الكبيره الا بمشقة من الزحام . وأدرك المقريزى من ذلك طرفا جيدا .

ومنذئذ ، صار أهل الحسينية يوصفون بالحسن والجمال البارع . وكان للناس فى نكاح نسائهم رغبة ، ولآخرين شغف بأولادهم . وفى هذا المعنى يقول الشيخ تقى الدين السروجى [1] .

يا ساعى الشوق الذى مذجرى ... جرت دموعى فهى أعوانه
خذلى جوابا عن كتابى الذى ... إلى الحسينية عنـوانه
فهى كما قيل وادى الحمى ... وأهلها فى الحسـن غزلانه

ومازالت أضواء اللهو والفساد مسلطة على الحسينية ، وبهجة الحى قائمة ، حتى أنزل الله لعنتة عليه فى أعوام الربع الأول من القرن التاسع الهجرى ، فسرت اليه الأرضيَّة ، بعد أن ظهرت فى ناحية سريا قوس والمطرية .

(١) شرحه : ص ٢٣

وفشت حتى عاشت فى سقوف الحسينية وغلات أهلها وسائر متعهم ، حتى أتلفت شيئا كثيراً ، وقويت حتى صارت تأكل الجدران ، فبادر أهل تلك الجهة إلى هدم مابقى من الدور خوفا عليها من الأرضيَّة ، واندثر معها الفساد ومحيت آثاره الإمن كتب التاريخ .

٤ — القاهرة بلا ماء :

على أن أغرب وأعجب حوادث الظلم والفساد ماوقع على عهد السلطان خشقدم ، الذى يرجع أصله إلى الجنس الرومى (اليونانى) . ويعتبر المملوك الرومى الوحيد الذى وصل إلى عرش مصر . لذلك ركب متن الشطط هو وبنو جنسه ، فى الزنا واللواط واشباع الشهوات واشاعة الفساد وأخذ أموال القضاء والمباشرين وسرعة عزلهم ، وزاد جور مماليكه البالغ عددهم نحو أربعة آلاف على حقوق الناس [1] .

يروى معاصره ابن اياس أن السلطان خشقدم أمر الأمير نافق الظاهرى ، شاد الشراب خاناه [2] ، فى رجب سنة٨٦٨م (١٤٦٣م.) أن يجهز صحبة العسكر الخارج لمقاتلة العرب الزاحفين من الصعيد على اقليم الجيزة عدة كبيرة من الروايا والقرب لحمل الماء للعسكر أثناء سيرهم خلف

(١) ابن اياس : ح٢ ص ٨٢
(٢) أى الأمير المتولى وظيفة سقى الماء والمشروب

العرب . فمد نافق يده بعامل الظلم والجبروت إلى زوايا السقائين ، فلما رأوا ذلك هرب كل واحد بجمله وروايته وقربته ولم يظهر بعد ذلك . فعز وجود الماء بالديار المصرية ، وأنت أخبر بأهل مصر وكثرتهم وعدم همتهم . فصار من له قوة وشوكة يرسل بالبغال وعليها القرب فينقل له الماء ، ومن دونه يرسل الحمار بالجرار ، ومن يليهم وهم الأكثر جهدوا وعطشوا وتكالبوا على السبل بالجرار والقلل ونحوها ، وازدحموا ، وصاروا فى جهد شديد . و بيعت الراوية لمن له شوكة بدرهم فضة و بثلاثة و بأربعة ، هذا إن وجدت . ودامت هذه الشدة أياما . فحصل لأهل مصر من ذلك مالم يحصل لغيرهم فى سالف الدهر ، حتى قال بعضهم «حسبنا حساب الغلاء ، وما حسبنا قط حساب فقد الماء» . وهو معذور فيما قال . فأنا لانعلم بحادثة وقعت مثل هذه الحادثة الغريبة الشنعة ، على قول أبى المحاسن (١) .

٥ — ياسلام سلم :

هذا وشعب مصر صابر ؛ والصبر من صفات الشعوب المؤمنة الواثقة بنفسها . لكنه لم يفقد القدرة على تلمس الفكاهة الحلوة أو النادرة اللطيفة فى حياته اليومية . كى ينفس بها عن آلامه ومحنه . و يشغل باله

(١) منتخبات . حـ٢ ص ٤٦٤

عما يرتكبه الحكام من مساخر ومفاسد لاحد لها . من تلك النوادر ظهور شخص فى أوائل شهر رجب سنة ٨٨١هـ (١٤٧٦م.) يتكلم من حائط فى بيت العدل شهاب الدين الفيشى الحنفى ؛ بالقرب من الجامع الأزهر ، فصار كل من يأتى إلى الحائط المذكور ويسأله عن شىء يرد عليه الجواب ، ويكلمه بكلام فصيح ، فجاءته الناس أفواجاً . وترددت إلى الحائط المذكور أكابر الدولة وتكلموا معه ، وافتتن الناس بذلك المكان ، وتركوا معايشهم ، وازدحموا على الدار المذكورة . وأكثر أرباب العقول الفحص عن ذلك ، فلم يقفوا له على خبر . وتحير الناس فى هذا الأمر العجيب إلى أن حضر إلى البيت المذكور القاضى جمال الدين القيصرى محتسب القاهرة وفحص عن أمره بكل ما يمكن القدرة إليه ، حتى أنه أخرب بعض الحائط فلم يؤثر ذلك شيئا ، واستمر الكلام فى كل يوم إلى ثالث شعبان . وقد كادت العامه أن تفقيد بالمكان المذكور وأكثروا من قولهم « ياسلام سلم ' الحيطة بتتكلم » .

وخاف أهل الدولة من إفساد الحال حتى ظهر أن الذى كان يتكلم هى زوجة صاحب المنزل ، فاستدعاها الأتابك برقوق مع زوجها فأنكرت ، فضربها فأقرت ، فأمر بتسميرها وتسمير شخص آخر معها يسمى عمر — وهو الذى كان يجمع الناس إليها — ضربهما الأتابك بالمقارع . وطيف بهما فى مصر والقاهرة . ثم أفرج عنهم بعد أن

حبسوا مدة .(١) ورغم ما فى القصة من طرافة فانها تـكشف عن سذاجه العامه والخاصه معا ، وانتشار البدع والخرافات والجهل الفاضح بين العامة ورجال الدولة على السواء .

٦ — حادثة قليوب أبيار

يعتبر عصر المماليك من أسواء وأظلم العصور التى شهدها الفلاح المصرى لأن المماليك أقاموا حكمهم على أساس إقطاعى بحت ، بمعنى أن يقطع السلطان أرض مصر لأمرائه، بعد أن يمسحها ويقرر عبرتها ، ويقوم الأمراء بدورهم باقطاعها لجندهم ، و يشترط السلطان فى منشور الاقطاع أن يأخذ كل أمير ثلث الاقطاع ، و يأخذ جنده الثلثين، فـكانت مكاتب الأمراء ترسل إلى مباشر الجيش قوائم جندهم وكيفية صرف الاقطاع على الأمير ورجاله، وكان الجند المذكورون فى الاقطاع يعرضون على السلطان الذى هو ولى الأمر ، فيجيز من يجيز و يرفض من يرفض ، ثم يعطى الأمير أو الجندى فى النهاية اقطاعه للفلاح كى يقوم بزراعته ، مقابل شروط يفرضها عليه ومنها ، أن يؤدى سنويا قدرا معينا من المال والغلال . و بذلك صارت قرى مصر كلها مقطعة للغرباء من المماليك ولأتباعهم ، من أعيان الدولة

(١) منتخبات : ح٣ ص٤٦٤

وفقهائها . و يذكر ابن الجيعان فى كتابه « التحفه السنيه بأسماء البلاد المصرية » اسم كل بلد ومساحتها بالفدان وعبرتها ومقطعها ، فيقول مثلا البلده الفلانية باسم سيدى الأمير فلان ... أو باسم الديوان السلطانى . . أو أوقاف . . أو باسم العربان إلى غير ذلك من أصحاب الحظوة والرضى لدى السلاطين . و بلغ عدة القرى المصرية حسب احصائه فى أواخر سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م.) على عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين ١٢٦٣ قرية، أصبح زمام الواحدة منها مقسما بين عدة مقطعين ، لـكل منهم أتباعه من الفلاحين(١) .

وكانت القاعدة المتبعة عند تغيير الدول واستبدال السلطان بآخر، أن يشرع السلطان الجديد فورا فى تقريب الأنصار وابعاد الخصوم ، وتغيير الاقطاعات وتوزيعها من جديد ، فيعطى من يشاء و يأخذ ممن يشاء . وتـكون النتيجة الطبيعية، أن أجزاء من أرض الأمير الصغير تصير منحا مقطوعة له من أمراء مختلفين ، و بشروط تختلف عن بعضها البعض ، كما أن تشتمل القرية الواحدة على أكثر من اقطاع ، وأن تخضع لأكثر من إدارة ، حسبما يقول أحد الأمراء المقطعين، وهو ابن تغرى بردى تحت أحداث سنة ٨٧٢ (١٤٦٧م.) «ومن غريب ما اتفق لبعض قرى المنوفية . وهى قرية قليوب أبيار بالجيزية . و بعضها جار فى إقطاعى . و بها قبر الشيخ عبد السلام

(١) ابن الجيعان : ص٣ و٧ .

القايبي ، ومن جملة مقطعي هذا البلد رجل يسمى يشبك ، أحد دوادارية السلطان الصغار » أي أن قرية قليب أبيار بالمنوفية أقطعت لأكثر من أمير ، يختلف كل منهم عن الآخر في شروطه مع فلاحيه . وفي أسلوب معاملاته لهم . مما يؤدي إلى اشتباك الحقوق واختلاط المصالح وتضارب السلطات . وتمزق الروابط الأسرية والاجتماعية في القرية . فالعائلة الواحدة تتبع لأكثر من أمير . وتخضع لأكثر من سلطة . سلسلة من المتناقضات ، وصور من الفوضى واضطراب الأمن . عاش في ظلالها الفلاح مضطربا ، في حال انتقالية من الحرية والرق وهي الحال التي وصفها المقريزي بالقِنّيَّة . إذ يقول » ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا . فيصير عبدا قنا لمن اقطع تلك الناحية » فالقن إذن هو الفلاح القرار الذي يعيش على فلح قطعة من الأرض ، يؤجرها إياه السيد الأمير صاحب الاقطاع وهو مربوط إلى تلك القطعة من الأرض مهما تغير مالكها : فلا يملك حرية الانتقال عنها ، وعليه أن يؤدي واجبات تبعيته ، بالخدمة في أرض هذا المتبوع وتقديم جزء من غلته له ، فضلا عن الدجاج والخراف والبيض والبرسيم والكشك والكعك وغير ذلك من الضيافة(١)

---

(١) انظر الخطط . جـ١ ص ٨٨

ورغم أن المجتمع المملوكي المصري اعتمد أعتماداً كليا على الفلاح المصري ، فمنه استمد السلطان والامراء والجند ورجال الدوله وسائر طبقات المجتمع ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون . رغم ذلك كله فقد كان جزاؤه كجزاء سنمار ، وتفسر حادثة قرية أبيار بالجيزية منوفيه مانزل بالفلاح من بلاء فادح وظلم صارخ ، وتتلخص الحادثة في أن الأمير يشبك أحد دوادارية السلطان خشقدم الصغار كان له إقطاع في هذه البلده ، فأرسل مندوبه إلى فلاحه بتلك القرية ليأخذ خراجه منه ، ونزل الرسول ضيفا على الفلاح حتى ينتهي من عملية درس القمح وكيله وبيعه بالجرن وإعطائه ماعليه لأستاذه ؛ فبينما هو في ذلك حضر إلى الناحية بعض عرب بني سالم . وكلم الفلاح بكلام . فرد عليه بما لا يرضيه من غير فحش . فما كان من البدوي إلا أن نزل عن فرسه . وأتى الفلاح إلى الأرض وأراد ذبحه بسكين معه . فجرحه من ظهره إلى رقبته . وهو يظن أنه قد ذبحه ، وذلك في الملأ من الناس قبيل الظهر . فلما رأى الناس ذلك حملوه عنه ، وقام الفلاح مسرعا إلى داره والدماء تسيل منه فتبعه البدوي وبيده السلاح ليتم قتله حتى دخل معه داره . فألقى الفلاح نفسه من داره إلى دار أخرى مجاورة ، وفر هاربا إلى قرية النحرارية . فلما علم البدوي أنه أفلت منه وفاته ، عاد إلى جهة جرن الفلاح ، ونادى

بأعلى صوته « متى راح من هذا الجرن القدح الواحد ، نهبت جميع أجرانكم وتوجه ليأتى بما يحمل القمح عليه . ثم عاد بعد ساعة ، وأخذ جميع ما بالجرن بتمامه وكماله ، ويتراوح مقداره بين ستة عشر وثلاثين أردبا ، ولم ينتطح فى ذلك شاتان، على قول شاهد عيان (١) .

حدث هذا فى عام قل فيه محصول الزرع . وعجز الفلاح عن تسديد ماعليه لصاحب الاقطاع . وليس هناك من سلطة عادلة حازمة ، ترد الحق إلى صاحبه أو تعفى العاجز من آداء ماعليه . فالبدو يكونون طبقة اجتماعية جائرة ، أشبه بدولة داخل دولة المماليك ، كثيرة الحل والترحال ، ولا عمل لها سوى السطو على القرى الآمنة ، والحقول الخضراء ، واشعال الثورات كلما استشعرت الضعف فى دولة السلاطين . والفلاح فى حيرة بين المطرقة والسندان أى بين المماليك والعربان .

ونكل العثمانيون بعد فتحهم مصر بالشعب المصرى وخاصة الفلاح، ففى تجريده المماليك الجراكسة لمعونة السلطان سليمان القانونى فى غزو جزيرة رودس سنة ٩٢٨هـ (١٥٢١م) رسم نائبه ملك الأمراء لوالى القاهرة بأن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لاجل أن يجدفوا المراكب التى تحمل العسكر المسافرة ، فنزل الوالى وأطلق فى الناس النار فى الشوارع ، وشرع يقبض على كل

(١) ابن تغربردى . منتخبات حـ٣ ص ٦٥٤

من رآه فى الرميله وفى الطريق . وكل من قبض عليه وضعه فى الحديد وأرسله إلى السجن حتى خروج العسكر . ثم صار الوالى يكبس على سواحل بولاق ومصر العتيقة. ويقبض على النواتية والفلاحين . وكذلك فعل كاشف الجيزة مع فلاحى قلقشندة وقليوب وسبك الثلاث ، حتى بلغ مجموع من قبض عليهم نحو ألفى فلاح . فصار الفلاحون يختفون فى المطامير، وكادت مصر تخرب على قول ابن اياس (٢) ويستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون التالية من الحكم العثمانى وبسوء ، فباشا يجىء وباشا يذهب، ويصور الجبرتى مظالم تلك القرون بقوله « لم يقع بها شىء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم » ويقول حينا آخر « لم يحدث فيها سوى ماتقدمت الاشارة إليه من أسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتواصل . ووقوع الانذارات الفلكيه والآيات المخوفة السماوية » كذا كان شأن الفلاح المصرى على طول عصور التاريخ التركى .

٧ — عقوبات :

يفرق المقريزى بين الحبس — أى الترسيم — وهو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، ويقابله اليوم الحبس الاحتياطى ، وبين السجن وهو الاعتقال فى مكان حرج ضيق ، كما يحصى عدد السجون

(١) بدائع الزهور حـ٣ ص٣٠٣

ومواضعها ، واختصاصاتها ، فهناك سجن للواقعين تحت عقوبتهم ، وسجن لأرباب الجرائم من السراق وقطاع الطرق ، وسجن لأصحاب الجرائم العظيمة ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك ، أما جب قلعة الجبل فكان سجنا للأمراء خاصة[١] .

[واتخذ القانون الجنائي صورا وأشكالا متنوعة وممعنة في القسوة ؛ كالتوسيط بالسيف نصفين أو القطع نصفين ، والاجلاس على الخازوق والتمزيق ، وقطع الأيدي والأرجل واللسان ، كما وقع لقتلة السلطان الأشرف خليل ، إذ قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال ، وطيف بهم وأيديهم معلقة في أعناقهم ، جزاء بما كسبوا[٢] . ومنها كحل العينين وقلعهما ، والصلب والحرق ، والتغريق في النيل ، والتسمير على لعبة من الخشب،غريبة الهيئة تجر بالعجل ولها حركات تدور بها ، والسلخ ، والعصر بالمعصرة] وهي آلة تتكون من خشبتين مربوطتين بحبل ، يوضع بينهما وجه المعاقب،أو رأسه أو رجلاه أوعقباه ،ثم تشد الخشبتان شدا وثيقا، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى كسر العظام المعصورة بين الخشبتين[٣] .

[ومن العقوبات المهولة نعل الرَّجُل في قدميه بالحديد كما تنعل الخيل ،

(١) زيادة حاشيه حـ١ ص ٥١٩ حـ٢ من السلوك .
(٢) السلوك حـ١ ص ٧٧٢
(٣) شرحه حـ١ ص ٧٠ حاشية ٣

ومنها تعليقه بيديه وربط أثقال في قدميه حتى تنخلع أعضاؤه ويموت[١] ومنها تسعيط المذنب بالماء والملح وبالخل والجير ، والضرب بالمقرعة أو السوط أو العصا على الرأس أو القدمين ، وقد تصل عدد ضربات العصا إلى خمسمائة عصا] ، بل وإلى أكثر من ضعف هذا العدد، كما حدث سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) حين طاش على برهان الدين النابلسي وكيل بيت المسلمين، وجار على الناس،فضربه السلطان عدة مرار نحو من ألفين وستمائة عصا ، وقلع أضراسه ودقها في رأسه وغير ذلك من أنواع العذاب ، الذي تفنَّن فيه تفننا زائدا ، كي يستخلص منه الأموال المخبأة،وظل في تعذيبه حتى مات تحت العقوبة[٢] .

[ومنها إلباس المذنب خوذه حديد محمية بالنار ، كي يجبر على الإعتراف بذنبه ، ومنها الشوى بالنار والدفن في التراب والمذنب حيا][٣] . ورغم هذه العقوبات القاسية فإن الطبع في الإنسان لا يتغير ، وآية ذلك أن شخصا من الحرميه ، يقال له ابن الوارث قبض عليه في سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) وقطع لسانه ، وكحلت عينه بالنار ، ومع هذا لم يرتجع عن الحرام والسرقة إذ قبض عليه بعد ذلك وعلى رأسه عمله[٤] .

(١) شرحه حـ٢ قسم ١ ص ٥٠٥
(٢) ابن اياس حـ٢ ص ١٧٣
(٣) شرحه حـ٢ ص ١١٦ و حـ١ ص ٣٠٩
(٤) ابن اياس حـ٢ ص ٣٥٣

[ووجد الناس فى تطبيق هذه العقوبات، وخاصة عقوبة التشهير والتجريس متنفسا لهم عن روح التشفى والغل المكبوت فى الصدور، فضلا عن الفكاهة والتسلية]. ومن نوادر السلخ والتشهير الطريفة، أن قاضى المالكية على عهد السلطان خشقدم حكم سنة ٨٦٦هـ (١٤٦١م) بسلخ رجل وحشوه، اسمه حمزة بن غيث أحد مشايخ العربان بمحافظة الغربية الحالية، لأنه ارتكب أمورا شنعاء، كنهب الأموال وقتل الأنفس والسجود للشمس من دون الله. ونفذ مجلس القضاء حكمه، فرسم بسلخه من يومه وحشوه تبنا. وطيف به من الغد على جمل بشوارع القاهرة. ثم حمل الرجل بتلك الهيئة المزريه إلى بلاد الريف، وطيف به القرى والبلاد.

وأعجب من هذا، أنه لما طال إشهاره بالأرياف على تلك الهيئة تفتق جلده، فأنزلوه وخيطوه وحشوه ثانية لتطول رؤية الناس له، وهو بتلك الحال.. وعدت هذه الفعله من محاسن الأمير جانبك الدوادار الخاصكى المعروف ببرش السيفى، فانه قام فى أمره قياما كليا، بعد أن كان حصل من السلطان بعض الميل للعفو عن الرجل لكثرة ماوعدبه من المال. ولذا أمرها السلطان فى نفسه حتى أتيحت فرصة اتهام جانبك المذكور بتهمة التآمر على قتله، فرسم بتغريقه فى النيل (١).

(١) منتخبات حـ٣ ص ٤٢٠، ٤٧٩

وأطرف من هذا، حادثة شنيعة غريبة مضحكة مهولة، وقعت بالقاهرة يوم الأحد رابع جمادى الآخرة سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٣م) وهى أن شخصا من العوام له عند آخر سبعمائة درهم فلوسا جددا (١). أعطاه منها المديون مائة وخمسين درهما ومطّله بالباقى. ثم اتفق موت المديون بعد ذلك بعدة أيام، فأخذ أهله فى تجهيزه وإخراجه على العادة، فلما انتهوا به إلى القبر، وبلغ صاحب الدين موته وتشييع جنازته، توجه ومعه أربعة نقباء عن المذاهب الأربعة وتبع الجنازة حتى أدركها قريبا من التربة، فأمسك نعش الميت وأصر على الرجوع به، حتى يأخذ ماله من دين على الميت. والتمس منه الناس التمكين من دفنه، ثم يُدبر أمر الدين وتعمل مصلحته بعد ذلك. فما وافق واستمر بالنعش حتى رجع إلى أن دخل به باب النصر. فصاحت العامة. الشرع الشرع. وتعصبوا للميت، وأخذوا النعش والغريم معهم مصمم على المطالبة بحقه حتى جاءوا إلى دار العدل «الصالحية النجمية». وقد اجتمع عليهم الجمع الغفير من الخلق، فدخلوا بالمشتكى والجنازة إلى داخلها.

وهناك وقفوا عند القاضى جلال الدين ابن الأمانة، أحد نواب الحكم الشافعية ليحكم بينهما. فلما رأى القاضى الميت فى نعشه وعلم الحكايه قام من وقته فتوضأ وصلى على الميت صلاة ثانية. وأمسك المشتكى وعزره

(١) اشتهرت الفلوس التى ضربها السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ١٣٥٨م بالفلوس الجدد، تمييزاً لها عن الفلوس المغشوشة.

التعزير البالغ ، وو بخة التوبيخ الزائد . ولولا مافعله القاضى به لـكانت
العامة تهلك المشتـكى بأيديهم ، على أنهم تناولوه أيضا باللعن والتوبيخ
بل والضرب أيضا ، وضربوا النقباء الأربعة الذين أيدوه ونصروه فيما فعل
حتى أشرفوا على الهلاك . ثم أخذوا الميت وعادوا به إلى تربته فدفنوه
بها . فهذا أغرب مارآه وماسمعه شاهد عيان ، ولعله لم يتفق فى الأعصار
الخالية على قوله [1] . ومن ثم شاع المثل القائل شر الأمور مايضحك .

إن مثل تلك النوادر والفـكاهات ، المنافية للآداب العامة والمخالفة
للعرف والتقاليد ، لم تكن سوى منفذ ومخرج أراد العامة به خلق جو من
المرح والهزل ، يجتمع حوله الناس كى يضحكوا أو يبـكوا ؛ وماذا يفعل
الصيادون بالاسكندرية بعد أن نفذ صبرهم على مظالم نائب الثغر من قبل
السلطان المؤيد شيخ !!

لقد خرجوا فى موكب وأهالى المدينة وراءهم ينادون بسقوطه ،
فأرسل إليهم مندوبه بقوة من المماليك اعترضت سبيلهم وحاولت تفريقهم ،
فقبضوا على المندوب وضربوه ، وكتفوه وحلقوا نصف لحيته وأركبوه
جملا وقيل حمارا . وفضحوه فى موكب حافل ، وطافوا به المدينة وهو
مكشوف الرأس ، وهم يضربونه بالنعالات ويزفه المغنون بالموسيقى .

(1) منتخبات : حـ٣ ص ٤٥٢

وقتلوه فى النهاية ، وأرسلوا إلى نائب الثغر من أحضره إلى المحـكمة ،
وأوقفوه عاريا أمام القاضى لمحاكمته ، ثم ضربوه ضربا مبرحا أفضى إلى
موته [1] وليس فى استطاعة السلطان أن يفعل بهم شيئا .

أليست هذه إرادة الشعب المصرى وقوة رأيه العام ، الذى لم ينقصه
آنذاك سوى القيادة الموحدة والشخصية السياسية الواعية الملهمة، لتقوده إلى
تحرير البلاد من طغمة المماليك الفاسدين

(1) ليفبول: ص٣٢٧ — الجبرتى تحت أحداث سنة ١١٩٩ هـ .

الفصل الثالث

مواكب النصر

١ — الأسرى

٢ — تقبيل أرض مصر

٣ — تصريخ المدفع

٤ — دوران المحمل

الفصل الثالث

مواكب النصر

١ — الأسرى

[ولو اقتصر عمل المؤرخين على تصوير عهود التخلف والضعف والانحلال ، زمن السلاطين الضعاف والأطفال على حد سواء . لكان تصورهم مبتورا ، مهزوزا مشكوكا، فى قيمته التاريخية لبعده عن تمثيل واقعية الحياة بخيرها وشرها]. لكن الواقع أن هذا لم يحدث ، إذ حرص أولئك المؤرخون على تصوير الخير حرصهم على تصوير الشر .[فأعطوا عهود الإنطلاق والقوة زمن السلاطين الكبار أمثال . بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى ، والناصر محمد ، وقايتباى و برسباى . أعطوهم من العناية والتقدير مايشيد به و يفخر كل مصرى وعربى ، لأن تلك العهود الخالدة أقامت الدليل على أن مصر المتحررة المنطلقة، قادرة دائما على صوغ الحياة وصنعها صنعا يحفظ لأبنائها ولجيرانها وللانسانية جمعاء ، الحرية والكرامة والإستقلال، وأنها لقنت أعداءها يومذاك أقسى الدروس وأنفعها]، كما تشهد بذلك صورتان مشرقتان ، يصف فيهما المقريزى موا كب عودة الجيوش

المصرية المملوكية الظافرة، وأمامها الأسرى من الأعداء ، تسير فى شوارع
القاهرة مكبلة بالقيود والأغلال ، منكسين رءوسهم وأعلامهم ،

الصورة الأولى بتاريخ شعبان سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) يوم أنه عاد
السلطان سيف الدين قلاوون من دمشق إلى القاهرة بجيوشه مظفرا ، تتقدمها
الأسلاب والغنائم وأسرى التتار بعد أن صد زحفهم على البلاد الحلبية ومزق
شملهم ، وحملت أسراب الحمام الزاجل أنباء انتصاراته إلى القاهرة ،
فأقامت الأفراح والزينات، ونصبت القلاع الخشبية على طول الطرقات من
مخفر قطيا جهة الصالحية ، على أطراف محافظة الشرقية الحالية حتى القاهرة
احتفالا بمقدمه ، فقسم الأمراء المواضع لقلاعهم وزينوها ، وزودوا كل
منزلة بالدقيق والشعير والأغنام والدجاج والحمام ، والأتبان وحطب السنط،
ودخل موكب السلطان قلاوون من باب النصر وأسرى التتار بين يديه ،
وقد حمل بعضهم الصناجق التترية وهى مكسورة ، وشقوا القاهرة بين
جموع المتفرجين إلى باب زويله ، وساروا إلى القلعة ، فكان يوما مشهودا
اجتمع فيه الناس من الأقطار وكثر فرحهم وسرورهم [١]

أما الصورة الثانية ، التى سجلها المقريزى فكانت بتاريخ شوال سنة
٧٠٢ (١٣٠٢م) على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكانت أكثر

---

(١) السلوك : حـ ١ قسم ٣ ص ٧٠١ .

وضوحا فى العرض والرؤيا ، وأصدق تعبيرا عن الانتصارات التى أحرزتها
جيوش مصر المملوكية على التتار أنفسهم ، إذ تزينت القاهرة من باب
النصر إلى باب السلسلة من القلعة ، وتفاخر الناس فى الزينة ونصب القلاع .
واقتسمت استادارية الأمراء شارع القاهرة إلى القلعة ، ورتبوا ما يخص
كل واحد منهم ، وعملوا به قلعة ، بحيث نودى من استعمل صانعا فى
غير عمل القلاع ، كانت عليه جناية (أى غرامة) للسلطان ، وارتفع سعر
الخشب والقصب وآلات النجارة ، وتفاخر الأمراء فى تزيين القلاع ،
التى بلغت عدتها سبعين قلعة ، متصلة بعضها ببعض ، وأقبل أهل الريف
إلى القاهرة للفرجة على قدوم السلطان وعلى الزينة ، وحضرت سائر مغانى
العرب من أعمال مصر كلها ، وخرجت جماهير الشعب مزينة بالحلى
والجواهر واللآلىء والحرائر ، واحتشدوا على أسطح المنازل ، وبلغ كراء
البيت الذى يمر عليه موكب السلطان من خمسين درهما إلى مائة درهم .

ولما وصل السلطان الناصر باب النصر ترجل سائر الأمراء ، وأول
من ترجل منهم أمير سلاح ، وأخذ سلاح السلطان، وحمل أمير شكار القبة
والطير ، وحمل أمير جاندار العصى ، وحمل أمير رابع الدبوس ، ومشى كل
أمير فى منزلته ، وفرش كل منهم الشقق من قلعته إلى قلعة غيره ، وكانت
قلعة محمد بن الشيخى والى القاهرة أول القلاع ، أقامها بباب النصر وعمل

فيها سائر أنواع الجد والهزل ، ونصب عدة أحواض ، ملأها بالسكر والليمون : وأوقف مماليكه بشربات حتى يسقوا العسكر العائد منتصرا[1] وإذا تجاوز السلطان قلعة، فرشت القلعة المجاورة لها الشقق حتى يمشى عليها بفرسه ، مشياً هينا لأجل مشى الأمراء بين يديه ، وكلما رأى قلعة أمير أمسك عن المشى حتى يعاينها ، ويعرف ما اشتملت عليه هو والأمراء .. هذا وأسرى محمود غازان امبراطور مغول ايران بين يديه، مقيدون ورءوس من قتل منهم معلقة فى رقابهم . وألف رأس على ألف رمح ؛ وعدة الأسرى ألف وستمائة . فى أعناقها ألف وستمائة رأس، وطبولهم قدامهم[2]

حقا ما أروع هذا الموكب وما أبدعه ، وما أحرى عواصم الدول المعاصره أن تهتز مشاعرها عند سماعها به ، فتتسابق إلى أرسال وفودها مهنئة مصر وسلطانها ، حاملة أفخر الهدايا وأندرها ، ملتمسة عقد معاهدات الود والصداقة معها، كما سوف ترى بعد . .

(على أن ابن اياس يسجل صورة أخرى لانتصارات مصر العسكرية على عهد سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، لاتقل روعة وجلالا عن الصورتين السابقتين إن لم تفقهما فى ابراز معالمها التاريخية ، وتعبيراتها الصافية عن فرحة الشعب والتفافة حول جيشه المنتصر وعمق الدرس الذى لقنه لأعدائه ، ووصف هيئتهم ، وماهم عليه من بؤس وشقاء ومهانة واذلال .)

---

(١) النجوم الزاهرة . حـ٨ ص١٠٦

(٢) السلوك حـ١ قسم ٣ ص ٩٣٨ — ٩٤٠

يقول ابن اياس أن المدعو سِوَار ابن دلغدار ملك التركمانى بأسيا الصغرى ، والمدعى نسبه إلى كسرى أنوشروان الفارسى دأب على الدس والكيد لمصر وسلاطينها بالأغارة على الأطراف الحلبية العراقية ، وحاولت مصر رد أطماعه عن تلك الجهات ، فسيرت اليه ثلاث حملات كسرها ، وانتهك حرمة مصر وهيبتها عند ملوك الشرق . وشغل سوار بال اثنين من كبار سلاطين المماليك، هما خشقدم وقايتباى قرابة خمسة أعوام (٨٧٢ — ٨٧٧هـ) حتى استطاعت حملة مصرية رابعة بقيادة الأمير يشبك الدوادار أن تلحق بالفارين من عسكره فى أقصى الشرق ، وأن تنزل بهم معركة مَهولة على نهر جيحون . على حين اختفى سوار نفسه فى قلعة زمنوطو وسلم نفسه أسيراً تحت وطأة حصار العساكر المصريه المملوكية . وحمل أسيرا إلى برقوق نائب الشام ، فأحضر له خلعه وبها جنزير وضع فى عنقه ، وزينت دمشق المحروسة ثلاثة أيام ليشبك زينة حافلة ، فكان له يوم مشهود بها، وكان بصحبته سوار ؛

ورحل موكب الأسرى إلى القاهرة مارا بغزة وغيرها من المدن الواقعة على الطريق . وامر السلطان قايتباى أن يبيض باب النصر وباب زويله وأن يضرب عليهما الزنوك الذهب ، وأن يخرج الأمراء ورجال الدولة إلى ملاقاة الأسرى فى الخانقاه . فلما وصلوا إلى الريدانية خرج القضاة الأربعة وأعيان مشايخ العلماء لاستقبالهم . ونودى فى القاهرة بالزينة ، فزينت

زينة حافلة ، ورجت لدخول سوار ، حتى بلغ أجرة كل بيت على الشارع أربعة دنانير أشرفية ، وأجرة كل دكان أشرفى ذهب ، بسبب الفرجه على سوار ، فخرجت البنت من خدرها ، تنظر إلى سوار الذى قتل العباد ، ورمل النساء ، ويتم الأطفال ، ونهب الأموال .

وفى يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول سنة ٨٧٧هـ (١٤٧٢م) : دخل الأمير يشبك الدوادار قائد الحملة القاهرة ، وقدامه الملك سوار المأسور ، وهو راكب على فرس ، وعليه خلعة تماسيح على أسود ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو فى زنجير كبير طويل ، ومشكوك معه فى الزنجير الأمير تم الضبع أحد العصاه . وكان قدام سوار أخوته وأقاربه ونحو عشرين من أمرائه ، وهم راكبون على أكاديش وعليهم ملاليط بيض ، وعلى رءوسهم عمائم وهم فى زناجير ، ومشكوك معهم جماعة من أعيان الولى . وشق موكب الأسرى القاهرة ، وسارت العساكر المصرية أمام قائدهم يشبك طلبا بعد طلب . واصطف الناس على الدكاكين ، وشهدت القاهرة يوما لم يقع نظيره فى الفرجة ، وكان من نوادر الزمان . وطلع الموكب إلى القلعة حيث جلس السلطان قايتباى على الدكة فى الحوش ، وجيىء بسوار بين يديه ، فوبّخه وعاتبه عتابا لطيفا ، ورسم بتسليمه لوالى القاهرة . فانظر ماذا فعل به ؟

لقد نزع الوالى الخلعة عن سوار فى الحال ، وأركبه على جمل وألبسه ملوطة بيضاء ، وجعل فى عنقه طوق حديد ، وفيه عامود من حديد طويل وفى رأس العامود جرس . ثم سمروا إخوته وأقاربه على جمال وهم عرايا ورءوسهم مكشوفة . وكان إخوة سوار أربعة هم . أردوانه الأحدب ، وحداد ، ويحيى ، وسليمان . ونزل موكبهم جميعا إلى شوارع القاهرة ، والمشاعليه تنادى عليهم « هذا جزاء من يخامر على السلطان » ولما وصلوا إلى باب زويلة شنكلوا سوارا ، وعلقوه فى وسط باب زويله ، وأخوه يحى عن يمينه فى الدخول من باب زويله لصوب باب النصر . وأرادونه عن شماله كذلك ، وعلقوا حدادا داخل الباب ، وأما سليمان فرق الناس له ، وشفع فيه الأمير يشبك وخلصه من الشنكله . أما الباقون فتوجهوا بهم إلى باب النصر ووسطوهم[1] .

٢ — تقبيل أرض مصر .

(ان سياسة الحزم والقوة التى انتهجها سلاطين مصر الفحول ، مكنت مصر من آداء رسالتها التاريخية على أكمل وجه . بها استطاعت أن تقف

(١) راجع بدائع الزهور لابن اياس : حـ ٢ ص ١٣٥ — ١٣٨ .

فى وجه المعتدين وتردعهم . وبها أعزت الاسلام والعروبة وحمتهما من عبث العابثين ، وبها تملك السلاطين أنفسهم نواصى العرب والعجم على قول الرحالة ابن بطوطة [٢] . ففتحوا أبواب القاهرة لجميع الوافدين · أفرادا وجماعات — على تباين جنسياتهم ومذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية . فآوى إليها ملوك فقدوا عروشهم ، وسكنها لاجئون سياسيون اضطهدوا فى أوطانهم ، وحل بها حجاج عابرون إلى الأراضى المقدسة ، يرومون الحج والزيارة فى مكة والمدينة والقدس . وهجر اليها المهاجرون من العرب والمغول بقصد الاستيطان بها . وترددعليها السفراء والقصاد يلتمسون التقليد والتفويض لملوكهم وأمرائهم بالحكم على رعاياهم من الخليفة العباسى المقيم بالقاهرة . ويقدمون الهدايا الحافلة للسلطان المملوكى · جاءت الوفود من ممالك المشرق والمغرب ، من العرب والعجم ، من الدول الاسلامية والمسيحية ، من قارات أفريقية وأسيا وأوربا .

وتعد القاهرة لأولئك جميعا الفنادق ومنازل الضيافة ، وتقدلهم المرتبات الشهرية ، ووسائل الراحة والاقامة ، وتزودهم عند عودتهم إلى أوطانهم — وبعد طول مكثهم بالقاهرة — بالتحف النادرة والهدايا الرائعة والأموال الزائدة . حقا لقد غدت القاهرة حاضرة الدنيا على قول ابن خلدون .

(١) الرحله جا ص ١٤

(إن مصر المملوكية قدمت من كرم الضيافة وسعة الإنفاق) ماتطفح به كتب التاريخ . وحسبك أن تعرف ما أنفقه السلطان الظاهر بيبرس على الكلف الطارئة المتعلقة بالرسل والوفود فى كل يوم ، بلغ عشرين ألف درهم [١] . وأن السلطان الناصر محمد وصل إلى بلاطه ثمانية رسل فى عام واحد (١٣١٦م) تتودد إليه ، وأنه أجرى لأحد سلاطين شمال أفريقية المخلوعين مائة درهم فى كل يوم قضاه بالقاهرة ، ثم جهزله حملة مصرية عسكريه سارت به إلى بلاده ، ومكنته من العوده إلى عرشه ، وحسبك أن تعرف أيضا أن السلطان برقوق عظم أمره ، حتى خطب باسمه فى أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله ، فخطب باسمه فى توريز من بلاد العجم ، وفى الموصل وفى ماردين وفى سنجار . وضربت السكه باسمه فى جميع هذه البقاع [٢] .

وان السلطان قايتباى آوى الأمير العثمانى محمد جم — الشهير بالجمجمة — وحاشيته ، وأمده بالأموال اللازمة لتأدية فريضة الحج ، وحج حجة عظيمة لم يحجها أحد من الملوك · وأن السلطان أبو بكر بن الناصر محمد — عملا بوصية والده — قلد الوزاره بالديار المصرية سنة ١٣٤٤م لأحد اللاجئين السياسيين من الأمراء العراقيين واسمه نجم الدين محمود ، المعروف بوزير بغداد . وأن السلطان الظاهر برقوق فوض إلى ابن خلدون وهو

(١) النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٩٨ .

(٢) على مبارك حـ ١ ص ٤٣ .

تونسى المولد وظيفة قضاء المالكيه بمصر وخلع عليه ، وهو أحد مناصب أربعه بعدد المذاهب ، صاحب كل منها قاضى القضاه . مما أثار عليه حقد القضاه المصريين والكيد به عند السلطان فهو الأجنبى عنهم . . حسبك أن تعرف ذلك كله ، الذى لم يكن الا نتيجه لهمة ونشاط أولئك السلاطين الذين جلبوا أنظار العالم إلى القاهرة ، فقصدها السفراء من كل أرجائه .

وتدل مواكب استقبال سفراء الدول لدى وصولهم القاهرة واعتمادهم ممثلين لبلادهم لدى سلاطينها ، تدل دلاله أكيده على المكانه السامية التى تبوأتها مصر المملوكية فى المحافل الدوليه . إذ كان استقبال أولئك السفراء يعد من الامور المهولة إلى الغايه . فيعمل لهم بالقلعه من الزفة بالمغانى والمواصيل والخليليه ما يقال له « نوبة خاتون » . ولذلك جمال يعرف به فتح باب القلعه من مسافة بعيده ، لعظم الفوغاء من الطبلخانات والخليليه والمواصيل ، وغير ذلك مما يصير به أبهة وعظمة زائده ، ورعب وهيبه لمن لا إلمام له بطلوع القلعة .

وساعة حضور القاصد إلى القاهرة يخرج لاستقباله على مسافة أمير من أمراء العشراوات ، يسمى « مهمندار » وأحيانا « مشيو » ، وينزله فى دار من دور الضيافة وأهمها : دار ابن شكر ، ودار عز الدين الصاحب ، والمارستان المؤيدى . ويقيم له من يقوم بخدمته . ويرتب له مايحتاج إليه ،

ولا يمكن أحدا من الاجتماع به . ويبلغ صاحب الباب السلطانى بقدومه . ثم يجتمع القاصد برجال البلاط السلطانى لتلقينه قواعد البرتوكول ، مثل تقبيل الارض بين يدى السلطان ، وتقبيل يديه . وعدم البصق فى حضرة السلطان الذى يرتدى فى ذلك اليوم أفخر الملابس ، ويحيط به الأمراء والوزراء فى أبهى الحلل . ثم يجلس على الملك ، وهو منبر من الرخام بصدر الايوان على هيئة منابر الجوامع إلا انه يستند الى الحائط ، ويغطى بالمخمل الاخضر . وفى ساعة دخول الرسول إلى السلطان يقبض المهمندار على يده اليسرى . ويقبض صاحب الباب السلطانى على يده اليمنى . وعلى المهمندار أن يحفظ ما يقول الرسول وما يقال . ويجتهد فى انفصاله على أحسن وجه . ويعنى هذا ضرورة إلمام المهمندار بعدة لغات . وقد توفر هذا فى أغلب رجال الدولة المملوكية أمثال القاضى جمال الدين إبراهيم — المعروف بجمال الكفاه — لرطانته بالالسنة التركيه والنوبية والتكروريه[1] .

ونادره سياسية هامة ، لها طرافتها وجدتها ، وقعت بسبب عادة تقبيل السفراء لأرض مصر بين يدى السلطان ، وفحواها أن قاصد خوندكار محمد بن عثمان متملك بلاد الروم وصل إلى الديار المصرية يوم الاحد ٢٨ رمضان سنة ٨٦٨ (١٤٦٣م.) وخرج إلى ملاقاته الأمير تمربغا رأس نوبة وجماعة الحجاب

(١) راجع خطط المقريزى : حـ ٢ ص ٧٦ و ٣٠٨ و حـ ١ ص ٤٦١ . ومنتخبات من حوادث الدهور حـ ١ ص ١١٨ .

وغيرهم ، وشق موكبه القاهرة ، ونزل فى بيت جانبك حبيب بالقرب من قنطرة طقز دمر . وفى اليوم التالى لوصوله طلع إلى القلعة لمقابلة السلطان خشدوم ، فلما قرب من مجلسه أمره المهمندار والدوادار بتقبيل الأرض فامتنع ، فأمره الدوادار الكبير فلم يفعل ، فشق ذلك على السلطان ولم يرحب به ، وقرأ كاتب السر من كتابه أمر الهدية لاغير ، ثم قدمت الهدية التى هى على يد القاصد من قبل ابن عثمان ، فكانت تشتمل على ثلاثين مملوكا ، وفرق غالبها على الأمراء ، ثم نزل القاصد من القلعة بغير خلعة ، وقد تغير خاطر السلطان عليه لكونه لم يقبل الأرض ، وأيضا أن الكتاب الذى وصل على يده من مُرسله لم ينصف فيه السلطان فى ألقابه ونعته ، بل غير غالب ما كان يكتب من أمثاله إلى ملوك مصر . وهذا أعظم الأسباب فى تغير خاطر الساطان ، لأن عدم تقبيل القاصد الأرض لسلطان مصر اعتذر عنه القاصد بأنه لا يعلم ترتيب هذه البلاد ، وان المهمندار لم يعرفه بذلك قبل طلوعه إلى القلعه . ومن جملة اعتذاره عن تقبيل الأرض قوله إن الله يقبل اقضاء فى صلاة الفريضه ، وأنا أُقبل الارض بعد ذلك بين يدى السلطان غير مرة . وأما ألفاظ الكتاب فاعتذر عنه بان الذى كتبه لا يعرف مكاتبة ساطان مصر . »

وقال ابو المحاسن شاهد العيان العذر الدول فى عدم تقبيله الارض

مقبول والثانى فيه نظر ، واستمر غضب السلطان على القاصد إلى صبيحة هذا اليوم وهو عيد الفطر ، فسكن ما به قليلا لما طلع القاصد فى يوم العيد وقبل الأرض ، وبعد صلاة العيد دخل السلطان إلى القصر الكبير وجلس على تخت الملك ، وخلع على الأمراء وأرباب الوظائف على العادة فى كل سنة ، وعدة المخلوع عليهم من القضاة والامراء والمباشرين والاجناد وغيرهم أزيد من ثمانمائة نفر . وهالت القاصد العثمانى هذه الرؤيه التى لم يقع فى الدنيا مثلها فى مثل هذا اليوم ، بقطر من الاقطار جملة كافية ، على قول شاهد العيان الذى يعدد الخلع التى أعطيت لكل منهم ، فهالت القاصد كذلك وأذهلته لكثرتها وفخامتها وغلوها[1] .

والطرافة فى هذه القصه أن الدولة المصرية الشاميه المملوكية — فيما يعلم الباحث — انفردت دون غيرها من دول العالم المعاصر أنذاك ، بابتداع مراسيم تقبيل القصاد والسفراء لأرضها ، تعبيرا عن ولائهم وخضوعهم ، ورغبتهم فى ابرام معاهدات الود والصداقه مع سلاطينها ، وتدل القصة على مقدار مابلغته مصر وسلاطينها من مكانه مرموقة ، ومهابة أخاذه بين الدول . على أن مراسيم تقبيل الارض وغيرها من عادات تقبيل الأقدام ، والتمرغ فى التراب والانحناء العميق ، يرجع ابتداعها إلى المجتمعات المغولية ، حيث نشأ أغلب المماليك وتمرسوا عليها قبل مجيئهم أرض مصر ، حسبما تشير المراجع المغولية

(١) منتجات حـ ٣ ص ٤٧١ و ٤٧٣ .

إلى الاحتفالات والأفراح التى أقامها الخواتين والامراء يوم تولية أرغون خان وإجلاسه على عرش المملكة يوم الجمعه ٢٧ جمادى الأولى ٦٨٣ (١٢٨٤م.). وطوق جميع الحاضرين اعناقهم بالأحزمة حسب العادات المتبعه، ثم ركعوا له وتناولوا الكئوس، وعمدوا إلى اللهو والشراب، وتمرغوا فى التراب ولسان حالهم يردد (إننا عبيد للعرش) [١] وكذا يفعل رجال الدوله المصرية المملوكيه فى مراسيم تنصيب سلاطينهم كما سبقت الاشاره [٢].

وتقضى الامانه التاريخيه بالإشاره إلى ماورد فى المراجع التاريخية من أن مصر أخذت بعادة تقبيل السفراء لارضها منذ العصر الفاطمى حينما أصبحت القاعدة المقرره إذا قدم إلى القاهرة رسول (متملك الروم ينزل من باب الفتوح، ويقبل الأرض وهو ماش إلى ان يصل إلى القصر) [٣] على مشهد من المتفرجين. ولعل السبب فى انفراد سفير بزنطة بتقبيل ارض مصر، هو كثرة الغارات واعمال القتل والنهب التى ارتكبتها الدولة البزنطيه المسيحية على الاطراف الشاميه الشماليه، فلما تغلبت القاهره وانتصرت عليها أرادت بها نوعا من الاذلال والتكفير عن الخطايا.

(١) جامع التواريخ حـ ٢ ص ١١٢ و ١٢٦.

(٢) انظر ما سبق ص ١٩

(٣) الخطط المقريزية حـ ٢ ص ١٠٧.

وكيفا كان أصل عادة تقبيل الارض فان السلطان برسباى أبطلها إكتفاءً بتقبيل اليد، واعتبر ذلك من محاسنه على حد قول على مبارك [١].

٣ — تصريخ المدفع

ويتعجب الناس اليوم — فى عصر الصواريخ — ويقفون مشدوهين أمام الاختراعات الحديثة المذهلة التى لم يسمع عنها الانسان من قبل. فيقف الناس إمام محطات التليفزيون والاذاعه يرون ويسمعون ما يعرض وما يذاع من صور وأنباء عن اطلاق إنسان فى سفينة فضائية مصروخه تحمله إلى القمر. وكذا [تعجب المصريون من قبلهم يوم أن تجمعوا لمشاهدة تصريخ المدفع لأول مرة فى تاريخ بلادهم]. وكان ذلك فى يوم الثلاثاء رابع عشرة شوال من عام ٨٩٨ (١٤٩٢م.) حين رسم السلطان الاشرف قايتباى بتصريخ المدفع السلطانى الذى سبكه له الاستاذ إبرهيم الحلبى بقلعة الجبل. وصُرح بين يدى السلطان فى أواخر رمضان من تحت قلعة الجبل الأحمر غير مرة. ثم نقل إلى ذيل الجبل الأحمر بالقرب من قبة النصر تجاه ظهر زاوية الشيخ على كهنبوش خارج القاهرة، ووُضع على صورة عالية ووضع رجل المدفع نحو الجبل المذكور وفمه إلى جهة خانقاه سرياقوس، وصرخ هناك فى يوم الخميس تاسع هذا الشهر مرتين، فى الملأ من الناس بحضرة

(١) الخطط التوفيقية حـ ١ ص ٤٥.

جماعة من أمراء الالوف وأعيان الدوله ، وقيس مسافة سقوط حجر المدفع المذكور ، فجاء أربعة الاف ذراع وستمائة ذراع وعشرين ذراعا بالذراع الجديد ، وكان فى المرة الاولى التى صرخ فيها بين يدى السلطان لم يقدر أحد على قياسه ، لأنه كان صرخ نحو الجبل ، ولم تعلم مسافة سقوطه . ولم يحضر المؤرخ المعاصر لهذا الخبر وهو ابن تغر بردى - بوصفه الخبير الفنى للشئون العسكريه للسلطان - لم يحضر هذا القياس الثانى ، ولم ينقل إليه من ثقة ، بل سمعه من أفواه الناس ، وفيه اختلاف من زيادة ونقص .

ولذا ، لما سأله السلطان عن أمره ومسافة سقوط حجر المدفع عرفه أنه لم يحرره ، فأمره أن يحرره فى المرة الثالثة . فقال له ابن تغر بردى «لا أعلم زنة المدفع ، ولا زنة حجره ، ولا زنة بارودة .» فأملى عليه قايتباى جميع ذلك وغيره من لفظه ، وتأهب ابن تغر بردى لذلك . فلما كان يوم الثلاثاء هذا صرخ المدفع ثالث مرة من مكانه المذكور مرتين ، فكان سقوط حجره الثانى تجاه مسجد التبين من المطريه ، وهو أبعد مسافه من الحجر الأول وأيضاً أبعد مسافه من سقوط حجارة رمى يوم الخميس المقدم ذكره ، وتولى ابن تغر بردى بنفسه وبمن يثق به قياس هذه المسافه بالضبط والتحرير الزائد ، فكان طول ذلك خمسة الاف ذراع وستمائة ذراع ، وثمانية واربعين ذراعا وكسراً بالذراع الجديد . وقدر ذلك بالذراع المعتبر فى قياس البُرُد والأميال

ستة الاف ذراع وخمسمائة ذراع وتسعه وثمانون ذراعا وثلثا ذراع ، وذلك بميل ونصف ميل وثمن ميل وربع عشر ميل تقريباً ، وذلك قريب من سدس بريد (١) .

ويتعجب ابن تغر بردى لهذا الاختراع الغريب وما أثاره فى نفوس الناس بقوله « وهذا شىء من النوادر الغريبه التى لم نعهدها ولا سمعنا بمثلها فى سالف الأعصار ، فتعجب الناس من أمر هذا المدفع غاية العجب . وكان لتصريخه يوم مشهود من كثرة الخلائق . وبالله لولا أننى شاهدت ذلك ما أثبته فى تاريخى ، لغرابة ما شاهدته من عظيم أمره ، وكل ذلك بسعادة السلطان » (٢) .

وتفسير هذه الاثارة من الناحيه التاريخيه ، ان استخدام البارود واختراع المدفع عرفتهما أوربا الغربيه لاول مره حوالى منتصف القرن الرابع عشر ، أثناء حرب المائة عام التى دارت رحاها بين انجلترا وفرنسا ، حيثما هاجم الفرنسيون حوالى ١٣٣٨ م . ميناء سوثهمبتون الانجليزى ، وأشعلوا فيه الحرائق بواسطة مدافع تقذف بقوة احتراق البارود كرات حديديه صغيره ، فكان ذلك بداية حلقة جديدة فى الحرب (٣) . ومن ثم شاع استعمال

---

(١) راجع : نظام البريد فى الدولة الإسلامية للمؤلف ص ١٦٧ عن وحدة المقياس الطولى من ذراع وميل الخ .

(٢) منتجات من حوادث الدهور ح ٣ ص ٤٧٤ .

(٣) تاريخ إنجلترا وحضارتها للمؤلف ص ١٦٤ .

لمدافع فى غرب أوربا . وجرت دولها فى سباق مع الزمن من أجل تطوير هذا الاختراع الجديد ، وإحلاله محل الاسلحة الوسيطه من سهام وأقواس وحراب ونبال .

(وبينما هذا يجرى فى الغرب ، يقف الشرق متشبثا بأساليب القتال وأدواته القائمة على المبارزه الفرديه بالسيوف والحراب، والكر والفر على ظهور الجياده المطهمه السريعه العدو ، فضلا عن إهمال تلك الاساليب وعدم الاعتناء بها ، وخاصة فى مصر منذ أن انقرض الجيل الأول من المماليك الذين جُلبوا فى حداثة سنهم كى يعدوا خصيصا للقتال . ثم قلَّ جلب المماليك ، وآلت السلطنة المصريه الشاميه بعدهم إلى طوائف — أشبه بمرتزقة اليوم — كانوا أصلا فى بلادهم ما بين ملاح سفينه ، ووقاد فى تنّور خباز ، ومحول ماءفى غيط أشجار ، ونحو ذلك . أى أن أرذل الناس وأدناهم على قول المقريزى ، صاروا يجلسون على عرش مصر وتنازعوا فيما بينهم عليه . وعرفت القاهرة بسببهم قتال الشوارع وحرب الحارات والأزقة بطوبها وعصيها ومتاريسها وخنادقها الخ . ولاهم للفريق المنتصر سوى فتح أبواب مصر للأجلاف الوافدين من بنى جنسه ، واشباع الشهوات ، وتنوع المظالم والمغارم بالعباد ، الأمر الذى أتاح الفرص لظهور إمارات ودول فتيه شرقيه ، تطلّع طمعها إلى البلاد الشاميه والمصريه، ومن

بينها امارة بنى عثمان بأسيا الصغرى ، التى طورت أسلحتها وفق ما ظهر فى غرب أوربا ، فعرفت الأسلحة الناريةوالرمى بالبندق والمدفع ، ونافست الدوله المصرية المملوكية فيما بين حدود سوريا شمالا ، راغبة فى ملء الفراغ الذى أوجدته حالة الفوضى فى القاهرة ودمشق (لكن تولية سلطان مملوكى قوى الشكيمه ،هو قايتباى أوقفهم عند حدهم نحو جيل من الزمان . إذ أسرع إلى تجديد شباب الدوله المصريه وتطوير أسلحتها إلى المستوى المتغير فى فى قوة العدو ، فأدخل مصر مجال المدافع وغيرها من مجالات أخرى غير تقليدية فى وسائل الدفاع ، وشجع قايتباى المشتغلين بالعلم والاختراع أمثال الاستاذ ابراهيم الحلبى الذى أثار أعجاب الناس ودهشتهم بتصريحه المدفع السلطانى السابق الذكر .)

(ويتطرق الحديث عن تصريح المدفع إلى العلم ودوره فى دفع عجلة التطور والتقدم فى العصر المملوكى : ويصف هذا الدور ابن خلدون فيما يسجل من انطباعات القاهرة وحضارتها فى نفسه بعد أن زارها لاول مرة فى سنة ٧٨٤ ﻫ (١٣٨٢ م .) فيقول « فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الامم ، ومَدْرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك . تلوح القصور والأواوين فى جوه . وتزهر الخوانك والمدارس بأفاقه . وتضىء البدور والكواكب من علمائه »[1] .

(١) عبد الرحمن بن خلدون للدكتور على وافى . ص ٩٠

وإذا تُرجم هذا القول إلى حقائق تاريخيه . اتضح للقارىء أن الازهر — حيث جلس ابن خلدون للتدريس — كان ولا يزال أكثر وأبرز معاهد العلم فى القاهره للدراسات العالية فى علوم الدين بخاصة والدنيا بعامة . يفد إليه طلبة العلم ومشايخه من مشارق الارض ومغاربها ، للتعمق فى دراسة الدين من تلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو . وكانت تعقد بالازهر مجالس لوعظ وحلقات الذكر والتدريس العام بحيث يجد الزائر له « من الأنس بالله والارتياح ونزوع النفس مالا يجد فى غيره » على قول المقريزى (١)

وبلغ عدة الطلبه الغرباء بالأزهر فى عام ٨١٨ (١٤١٥م) سبعمائه واربعين رجلا ، بين عجم وزيالعه ومغاربه وريّافه من مصريين وشوام . ولكل جماعة منهم رواق يعرف بهم . فضلا عن عدد من الشيخات اللاتى شاركن بنصيب كبير فى النهضه العلمية الدينيه ، وتحملن مشاق السفر ومخاطر النقله فى طلب العلم ، من أجل السماع والقراءة على عدة من شيوخ الأزهر المشهورين . واشتهرت منهن كثيرات وكن يكنين بست الشام ، وست الفقهاء ، وست القضاه ، وست الناس ، وست النعم ، وست الوزراء ، إشارة إلى نوع تخصصهن أو فضلهن .

وتقدم إدارة الأزهر لهؤلاء جميعا الطعام مجانا فضلا عن الهبات والمرتبات الشهرية .

(١) الخطط حـ ٢ ص ٢٧٦ .

وشاركت المساجد الأخرى الجامع الأزهر فى الحركه العلميه الثقافيه ومن أشهرها جامع المؤيد بجوار باب زويله ، الذى جعله السلطان المؤيد شيخ معهدا للدراسة الفقهيه على المذاهب الأربعه ، يتولى تدريس كل مذهب شيخ من شيوخه ، وزوده بالمكتبه والخدم وما يحتاج إليه الطلبه من طعام وفراش ومال .

أما المدارس فى العصر المملوكى ، فلم يستطع الرحاله ابن بطوطه أن يحصرها لكثرتها وتفرقها فى أحياء القاهرة ومصر . ومن أشهرها المدرسه الناصريه نسبة لمنشئها الملك الناصر محمد ، والمدرسه الصحابية البهائيه نسبه إلى منشئها الوزير الصاحب بهاء الدين ، ومدرسة الناصر حسن بن الناصر محمد التى شيدها بسوق الخيل تجاه القلعه والتى لم يعمر مثلها فى الاسلام ، إذ قيل أن إيوانها بنى على قدر ايوان كسرى انو شروان فى الطول والعرض . وان أخشاب أساقيل العماره قومت بمائة ألف دينار . وكانت تشتمل على أربعة مدارس ، لكل شيخ مذهب مدرسه تختص به (١) ، وكان التعليم والتغذية والكتب والاقامه فى هذه المدارس جميعا بالمجان .

وهناك مؤسسات اجتماعيه ثقافيه أسهمت بنصيب وافر فى الحركه العلميه وهى الخوانق والربط والزوايا . أنشأها السلاطين والأمراء خصيصا لجماعة المتصوفة من عرب وعجم . أنقطعوا فيها للعباده والزهد والتفقه فى

(١) ابن إياس: حـ ١ ص ٢٠٤.

الدين)، وقد زودت هذه الدور بالحمامات والمطابخ والمدافن والصيدليات والمكتبات والفرش والآنيه وكل ما يحتاج إليه المتصوفه . وأشهرها خانقاه ركن الدين بيبرس وخانقاه شيخون : ويضم الواحد منها ما بين المائة والاربعمائه صوفى : ويقرر لكل منهم الطعام والخبز يوميا ، والحلوى والزيت والصابون والمرتب شهريا .

* (ومما سبق ، يتضح أن سياسة المماليك التعليميه كانت تهدف إلى تحقيق غرضين : الاول دينى وهو نشر الدين الاسلامى وحماية شعائره ، ورفع شأن المذهب السنى بمذاهبه الاربعه ، وتشجيع الدراسات الدينيه بوجه عام ، والثانى عسكرى وهو بناء جيش قوى ماديا ومعنويا ، يقدر على حماية القوميه الاسلاميه والوطن العربى ، وفى حمايتهما ما يضمن بقاء حكمهم على البلاد والرعيه .

وكان تحقيق الهدف الاول من اختصاص الازهر والمدارس العامه والجوامع والمؤسسات الاجتماعيه والثقافيه الأخرى . أما تحقيق الهدف الثانى فنيطت به المعاهد الفنيه العاليه ، التى أنشأها المماليك والتى أطلقوا على الواحدة منها «معلمية»)، فكان هناك معلمية الدلالين ويقابلها اليوم كلية التجاره ، ومهمتها تخريج تجار المماليك الذين يجوبون أسواق الرقيق ويعودون بالجلبات ، وكذلك التجار الذين يتاجرون لحساب السلطان أو الأمير

فيقال دلال الغنم ، ودلال القمح وهكذا . وهناك معلمية المؤدبين ويقابلها الكلية العسكريه أو كلية المعلمين ، وتتولى تربية وتعليم المماليك مدنيا وعسكريا . . ومعلمية المعماريين ويقابلها اليوم كلية الهندسه ، وتخرج المهندسين والبنائين الذين يشيدون العمائر السلطانيه والقصور والدور والمساجد والخوانق والحصون والقلاع والجسور والطرق إلخ . ومعلمية المحمل ويقابلها اليوم مدرسة الفرسان ، وتقوم بتدريب مماليك المحمل ودورانه على النحو القادم شرحه . ومعلمية الموسيقى والبناء وهكذا . .

* (ولاشك أن المماليك أولوا عنايتهم النوع الثانى من التعليم . مما يفسر قلة الابتكار والتجديد فى النهضه العلميه المملوكيه بوجه عام ، رغم ما خلفته من مصنفات وموسوعات لمشاهير العلماء ، أمثال النويرى والقلقشندى والعمرى والمقريزى وغيرهم كثير ، تدل على أنها كانت نهضة شاملة على أية حال ، متشعبة الاطراف والأهداف .)

٤ — دوران المحمل

جرت عادة المماليك أن يحتفلوا سنويا بدوران المحمل ، كما احتفل به قبلهم الفاطميون ، فينادى فى الناس قبل موعده بثلاثه أيام بأن يزينوا حوانيتهم ودورهم ، ويأتى أهل الريف من كل مكان للفرجة على حرق

النفط وعمل الصواريخ ، ويتغالون فى إكتراء البيوت والحوانيت والاسطحه مغالاة كبيره . وربما قضوا ليلتهم فى الطرق .

حتى النساء : « يبتن فى الحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد . »

ولعل حرص الناس على مشاهدة الاحتفالات بدوران المحمل يرجع إلى ما أحدثه المماليك من عجائب ولطائف وألعاب بالرمح لا عهد لهم بها من قبل . فيركب جماعة من المماليك السلطانية الرمَّاحة وهم فى ملابس الحرب وبأيديهم الرماح ، حين يبدأ الموكب من مخيم أمير الحج خارج باب النصر ، وأمامه الوزير والقضاه الأربعه والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم . ويسير خلفهم جمل الكسوة — وهى من الحرير النفيس المطرز بالذهب والقصب فى هيئة لطيفة . ويظل الموكب يتهادى فى طريقة حتى يصل إلى ميدان الرميلة تحت القلعه ، حيث يلعب المماليك برماحهم أمام السلطان ثم ينصرف المحمل بعد ذلك إلى الفسطاط .

ليس هذا فقط مايثير لدهشه والعجب ، بل أن سلاطين المماليك خصصوا مدرسة عالية لتعليم الطلبة «فن إدارة المحمل ولعب الرماحة» أسموها «معلمية المحمل» يتولى نظارتها أحد المعلمين الكبار من ذوى الخبرة الفنيه ، ورشح لها المؤرخ المعروف أبى المحاسن «ابن تغربردى» سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م.) على عهد السلطان أبى النصر إينال ، وعين له أربعه مساعدون من أمراء العشرات ،

يطلق عليهم « بَاشَات » بعد أن اعتذر جماعة من الأمراء الألوف لعجزهم عن معرفة هذا الفن ، وما يتصل به من تدريب الجند ، وإعداد جمل المحمل وخيول اللعب ، وتمثيل ما أسموه « عفاريت المحمل » . وهم جماعة من « أوباش المماليك السلطانية » يُغيرون زيهم ولباسهم بزى مضحك بشع ، ويركبون خيولا عليها أنواع القلاقل والأجراس والشراشح فى هيئة مزعجة مهولة إلى الغاية ، ويعتبون على العوام ، ويُزعجون الناس بقصد إضحاكهم .

ومما وقع من اللطائف فى يوم المحمل سنة ٨٥٧هـ . (١٤٥٣م.) أنهم لما زينوا ، وشرع عفاريت المحمل يضحكون الناس على العادة خرج شخص من التجار المشارقة ، وقصد جهة من الجهات ، فلما صار فى وسط الحلقة قصده عفريت وطعنه برمحه حتى رماه عن فرسه ، بعد أمور وقعت بينهما ، فضحك الناس من ذلك[1] .

وفى سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٣م.) أخرج المعلم الأمير قايتباى الظاهرى أمير سلاح رمَّاحةَ المحمل ، ولعَّبهم بين يدى السلطان خشقدم فى كل يوم إلى أن فرغ اللعب ، وأوقفهم صفاً واحداً ، ووقف هو فى الوسط ، ووقف باشان عن يمينه وباشان عن يساره ، ودق لهم فنزل الجميع إلا هو والباشات الأربعة ،

(١) منتخبات من حوادث الدهور : ح ٣ ص ١٨٠ و١٨٩ و٥٣٨ .

ودق لهم، فباسوا الأرض دفعة واحدة، ودق ثالثة فركبوا خيولهم، ثم وقفوا مكانهم. وتقدم المعلم قايتباى والباشات على هيئة وقوفهم، ومشوا خطوات يسيرة، ثم نزلوا وقبلوا الأرض بين يدى السلطان، وتقدموا واحداً بعد واحد، فقبلوا رجل السلطان؛ ثم بعد الجميع جاء المعلم قايتباى وفعل مثلهم فخلع السلطان على المعلم والباشات الأربعة.

لا شك أن السلطان خشقدم أعجب كثيراً من نزول المماليك عن خيولهم فى آخر اللعب وتقبيلهم الأرض بين يديه، وكذلك ما فعله بعدهم المعلم والباشات الأربعة من نزولهم أيضاً عن خيولهم وتقبيلهم الأرض، وأمر المعلم أن يفعل ذلك يوم دوران المحمل بميدان الرميلة تحت القلعة. وهذا شىء لم يفعله أحد من المعلمين قبل ذلك على قول الراوى شاهد العيان [1]، الذى أثنى على المعلم قايتباى لاهتدائه لهذا المعنى الظريف الذى لم يُسبق إليه. إذ «أن فيه نوعاً يعظم الملوك، والنفوس تحب التعظيم بالطبع. وفيه زيادة فرجة فى نزولهم وركوبهم بتلك الهيئة العظيمة. ودوران المحمل كله إنما هو بصدد الفرجة وتعظيم تعلقات الحج».

ويعنى هذا، أن بدعة دوران المحمل يُقصد بها التنفيس عن الناس وإضحاكهم مع تعظيم السلطان وإجلاله، فضلا عن ترغيب الناس وحثهم

(١) أبو المحاسن: منتخبات ح ٣ ص ٤٥٦.

على أداء فريضة الحج. وكان الظاهر بيبرس أول من أمر بطواف المحمل وكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ٦٧٥هـ (١٢٧٦م.) غير أن جماعة المماليك الجلبان خرجت عن هذا القصد الحسن فى عهد سلاطين الجراكسة الضعاف، وصارت تدخل بيوت الأمراء والناس ودكاكين التجار، وتطلب منهم ومن المارة أموالا، يجبونها على كره منهم، ومن امتنع عن الدفع آذوه وألحقوا به ضرراً بليغاً» حتى صار الناس يترقبون فراغ المحمل ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة». فضلا عن خطف النساء والصبيان وعمائم الناس. وعظم الفساد وتزايد التشويش من الجلبان فى حق بعض الأمراء، فكلموا السلطان خشقدم ٨٧١هـ (١٤٦٦م.) فى أمرهم فرسم بأبطالهم واستراح العباد من ظلمهم [1]. على قول أبى الحسن.

(١) النجوم الزاهرة ح ٧ ص ٥٠٧ وما بعدها. منتخبات من حوادث الدهور ح ٣ ص ٤٥٨ و٥٣٨؛ ابن إياس ح ٢ ص ٥٩.

الفصل الرابع

أرض مصر ذهب

١ — ازدهار ورخاء

٢ — قحط ووباء

٣ — تحف نادرة

الفصل الرابع

أرض مصر ذهب

(يلاحظ الدارس لتاريخ المماليك ظاهره التحول الاقتصادى فى حياة المجتمع المصرى المملوكى من مظاهر النمو والصعود فى عهود بعض السلاطين إلى مظاهر الضعف والهبوط فى عهود البعض الآخر . وتتكرر هذه الظاهرة بحيث تصير هى القاعدة على مر التاريخ المملوكى . فبينما تنعم البلاد بالرخاء والازدهار والعمران لمدة سنين ، تعود فجأة إلى الشقاء ومعاناة أعراض الانحلال والركود والقحط والوباء . وتلك سنة الله « فالغلاء والرخاء ما زالا يتعاقبان فى عالم الكون والفساد ، منذ بدأ الله الخليقة فى سائر الأقطار وجميع الأقطار والأمصار » . على حد قول المقريزى[1] . وتعطى الصفحات القادمة صوراً من هذا وذاك)

١ — إزدهار ورخاء

يعجب إنسان العصر المملوكى من تكرار أزمات القحط والمجاعات والأوبئة فى مصر ، وهى البلد الطيب التى حباها الله بالنيل العظيم ،

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧ .

فيمدها سنوياً بالخصوبة والماء ، ويكسوها بالخضرة والنعيم ، كما ورد عنها
فى القرآن الكريم بالإشارة والإيماء « كم تركوا من جنات وعيون
وزروع ومقام كريم . » فضلا عن البركة التى جعلها الله من سمات تلك
النعم ، يقول الرسول الكريم : صلوات الله عليه قُسمت البركة عشرة
أجزاء ، فجعل لله تسعة منها فى مصر ، وجزء فى سائر الأمصار .

(إذن ، لم يكن مستغرباً على المصريين أن يحرصوا — منذ فجر التاريخ
حتى اليوم — على مراقبة زيادة النيل وحساب ارتفاعه وانخفاضه كل يوم
بالأصابع . فإذا تأخر أو توقف عن الوفاء والزيادة ، عم الناس الحزن
والقلق ، وارتفع سعر القمح وغيره من الحبوب واشتد الغلاء . فيبادر
السلطان إلى تكليف قضاة المذاهب الأربعة والمشايخ والعلماء وطلبة
الأزهر بالتوجه إلى مقياس الروضة ، حيث يواصلون تلاوة القرآن والأحاديث
النبوية ، ويدعون الله بزيادة النيل . أما إذا دلت تنبؤات رجال الرى
والهندسة بارتفاع الفيضان إلى حد الخطورة ، بادرت حكومة السلطان
بإقامة الجسور والسهر على صيانتها وحفظها من الانهيار . فإذا بلغت زيادة
النيل فى مقياس الروضه ست عشرة ذراعاً تمَّ خراج السلطان ، فإن زاد
ذراعاً كان الخصب فى العام والصلاح التام . فإن بلغ ثمانى عشرة ذراعاً
أضر بالضياع . وأعقب الوباء . وإن نقص ذراعاً عن ست عشرة نقص

خراج السلطان . وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد[1] .
ويطوف المنادون فى شوارع القاهرة يأمرون الناس بالصيام ثلاثة أيام والخروج
إلى جامع عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر أو الصحراء لصلاة الاستسقاء .
صار النقص بالقياس أربع عشر أصبعاً عن الوفاء يوم السبت ٥ رمضان
سنة ٩٢٦ هـ (١٥١٩م.) فأقام ملك الأمراء فى المقياس ومعه الفقهاء يقرءون
القرآن وصحيح البخارى ، وأحضر الأطفال الأيتام وفرق عليهم الأموال ،
وأحضر من الآثار الشريفة القميص ووضعه فى فسقية المقياس وغسلوه فى
الماء الذى بها ، وكثر الضجيج والبكاء والتضرع إلى الله تعالى بالزيادة .
وأمر بإطلاق من فى السجون من الرجال والنساء والأطفال نحو الثمانين ،
وزار من بالقرافه من الصالحين ، وفرق على الزوايا التى هناك أموالا وفعل
من وجوه البر والصدقات أشياء كثيرة . واستمر حال النقصان حتى يوم
الأربعاء ، فعول ملك الأمراء على الخروج بالناس قاطبة إلى الاستسقاء يوم
الخميس . لكن حدث أن زاد النيل من النقص ثلاث أصابع فسر الناس
عامة وانطلقت النساء بالزغاريد ، وبلغ التأخر عن الوفاء ست أصابع فقط
ذلك العام[2] .

وينزل السلطان فى يوم الاحتفال بوفاء النيل فى موكب حافل من

---

(١) ابن بطوطة حـ ١ ص ٣٠ .
(٢) ابن إياس : حـ ٣ ص ٢٢٦ .

القلعة إلى مقياس الروضة ، ويركب خلفه الأمراء والقضاة والأعيان ، إلى حيث يمد سماط كبير – بعد وصوله – من الشواء والحلوى والفاكهة يأكل منه الكبراء، وما تبقى يأكله العوام. ثم تجهز حراقة السلطان وتزين بأفخر أنواع الزينة ، ويجرى بها على سطح النيل وحوله حراريق الأمراء ومن خلفهم تسير مراكب المتفرجين تزفها المغانى والطبول والزغاريد . ويظل موكبهم يتنقل على سطح الماء حتى يدخل السلطان بحراقته إلى فم الخليج ، وهناك يُقطع السَّد بحضوره ، ثم يعود ركبه بعد ذلك صاعداً إلى القلعة .

ويكون يوم كسر الخليج يوماً مشهوداً فى القاهرة ومصر ، تعطل فيه الدواوين السلطانية والمماليكية ، وتغلق الأسواق والدكاكين ، وتأتى الناس من شمال الوادى وجنوبه ، لمشاهدة الزينات والاحتفالات والمتفرجات ...

وما دامت الزراعة هى محور الحياة المصرية وركيزتها الأولى ، فقد أصبح واجباً حتمياً على الناهبين من السلاطين أن يهتموا بشئونها من رى وصرف وعدالة فى توزيع المياه والبذور على الفلاحين ، وتعيين مواعيد تحصيل الخراج وطرق جبايته ، وإنشاء الجسور والقناطر والسواقى والمعاصر وصيانتها . وكانت الجسور نوعان : جسور سلطانية ، لها خَوَلة ومهندسون لكل عمل ، يقومون فى خدمة والى الإقليم وكاشف الجسور به ، ولها كاتب منفرد بها ، مقرر فى ديوانه ما على كل بلد من الجراريف والأبقار .

وجسور بلدية خاصة ببلد دون بلد ، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم من الأموال الجارية فى إقطاعاتهم ، ولها ضرائب مقررة فى كل سنة[1] .

وميز المماليك بين ما يزرع شتاء وما يزرع صيفاً . فعرفوا زراعة القمح والشعير والعدس والحمص والكتان والبرسيم والبصل والترمس والبطيخ واللوبيا والسمسم ، والقطن وقصب السكر والقلقاس والباذنجان والخيار والفجل واللفت والخس والكرنب والكروم . ومن الفاكهة التين والتفاح والخوخ والموز والنبق والمشمش والكاوى وجوز الهند وغيرها . ومن الزهور والنرجس والياسمين والرياحين ، ونقلوا أشجارها من الشام والحجاز .

وكان لموقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب أثر كبير فى رواج تجارتها وزيادة ثروتها . فكانت القاهرة ملتقى عامراً لتجارة الشرق والغرب ، تمر بها تجارة الهند والصين إلى أوربا عن طريق الموانى المصرية على البحر الأحمر ، ومنها بواسطة القوافل إلى نهر النيل فالموانى المصرية الشمالية إلى عرض البحر المتوسط . وتعبرها بالتالى تجارة أوربا إلى الشرق . وتدفقت من الجمارك ثروات ضخمة على خزائن الدولة والأمراء والأفراد ، ويدل

(١) القلقشندى : حـ ٣ ص ٤٤٨ .

على ذلك أن تجارة عبد العزيز بن منصور الكولمى المتوفى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣م.) راجت بالإسكندرية واتسعت حتى أصبح من مشاهير الكارم بها : توجه فى تجارة إلى بغداد ومعه خمسة عشر ألف درهم ، وانحدر من بغداد إلى البصرة ، وعبر الهند إلى بلاد الصين ، ثم عاد ماراً بعدن فاليمن ، ومنها إلى مصر سنة ٧٠٤هـ (١٣٠٤م.) ببضاعة قيمتها أربعمائة ألف دينار [١] .

وزار ابن بطوطة مصر فى ١٣٤٨م . على عهد السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون فوجد مصر تتجر اتجاراً واسعاً خصوصاً فى العطور والسكر والحرير. ووجد دسوق مدينة ضخمة تبلغ ضعف الإسكندرية ، وتملك تجارة واسعة . وشهد بأسواق القاهرة من السكر والمواد الغذائية والعطارة ما لم يره فى عاصمة أخرى ، وكانت العاصمة المصرية تزخر أيام زيارته لها بالسكان ، فلا يكادون يجدون ما يكفيهم للبيات فيها . ويبيت خارجها كل يوم لا أقل من مائة ألف ساكن . وكان بمصر وحدها ١٢٠ ألف سقاء و ٢٠ ألف مكارى و ٣٦ ألف مركب نيلية . كذلك كانت أبيار مدينة كبيرة تصنع الثياب القيمة وتصدرها إلى الشام والعراق . والمحلة مدينة جليلة حسنة كثيرة السكان ، ودمياط مدينة صناعية تملح السمك وتصدره إلى الشام وبلاد الروم . وتصنع مدينتا قوص ودلاص

(١) السلوك ﺟ ٢ قسم ١ ص ١٣٢ .

الكتان وتصدرانه، خصوصاً إلى إفريقية الشمالية . أما الصوف الجيد فيصنع فى بهنسة ، ويصنع السكر بمنفلوط . ويقدر ابن بطوطة ما كان يحصل وقتذاك على البضائع المصدرة فى جمرك قطا على حدود مصر الشرقية زكاة بما لا يقل عن ألف دينار ذهب فى اليوم . ويلاحظ أن الأسواق كانت لا تنقطع بين القاهرة وأسوان، حتى لا يكاد المسافرون يحتاجون إلى حمل ما يحملونه [١] .

ويصف المقريزى حالة مصر الاقتصادية على أيامه فيقول : «وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول : إن القصبة (سوق من أسواق القاهرة) تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرملة إلى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتباراً جيداً لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع ، فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون يرمى بمصر كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل ، يعنون بذلك ما يستعمله اللبّانون والجبّانون

(١) راجع ابن بطوطة ﺟ ١ ص ٥٦ و٢٦ و٤٣ . وصبحى وحيده ص ٨٣ .

والطباخون من الشقاف الحمر التي يوضع فيها اللبن ، والتي يوضع فيها الجبن
والتي تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو
الجبن من الخيط. والحصر التي تعمل تحت الجبن في الشقاف ، ومايستعمله
العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التي تشد بها القراطيس
الموضوع فيهاحوائج الطعام من الحبوب والأفاوية وغيرها. فإن هذه الأصناف
المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المذابل[1] ».

يُعد هذا الوصف تقريراً لخبير اقتصادى عن حركة السوق
المصريه فى عصر المماليك ، يذكر فيه شدة ازدحام القاهرة بمن فيها ،
وتوفر المواد التموينية والاستهلاكية لجميع طبقات الشعب و بأسعار أرخص
منها فى باقى دول العالم وقتذاك . و يقدر ثمن ما يلقى من فائض المأكولات
والأدوات الورقية المستعملة فى الأكل على الكيمان والزبالة يومياً بألف
دينار ذهب . فكم يكون ثمن ماتستهلكه القاهرة يومياً من مواد تموينية .؟

ويمضى المقريزى فى تصوير حياة الرفاهية والسعادة التى يحياها سكان
أحد أحياء القاهرة فيقول : « إن أكثر ما يسكن بركة قرموط الكتاب
المسلمون ونصاراهم ، وهم فى الحقيقة المترفون أولو النعمة . وما مررت بها ،
إلا وتبيّن لى من كل دار هناك آثار النعم . إما بروائح تقالى المطابخ ،

(١) الخطط ح ٢ ص ٩٥ و ١٦٤

أو عبير بخور العود والند ، أو نفحات الخمر ، أو صوت غناء ، أو دق
هاون ، ونحو ذلك مما يبين عن ترف سكان تلك الديار ، ورفاهية عيشهم
وغضارة نعمهم[1] » ، أى أنه يخص طبقة الكتاب بالنعيم والرفاهية ،
فهم أشبه بطبقة أمراء المماليك وكبار رجال الدولة . وهو أقرب ما يقال
اليوم عن رفاهية سكان الزمالك وجاردن ستى ومصر الجديدة وما يرتعون
فيه من بذخ ونعيم ، إذا ما قورنوا بسكان الأحياء الوطنية الشعبية فى
الحسين والسيدة زينب ومصر القديمة مثلا .

٢ — قحط ووباء

ورغم هذا الثراء الوفير والموارد الإنتاجية الواسعة ، فإن المعاصرين
من المؤرخين يشعرون بالمرارة والأسف لما تعرضت له جماهير الشعب من
حوادث الأوبئة ، وما يلحقها من مجاعات وغلاء وقحط. فالمقريزى يحصى
فى كتابه « إغاثة الأمة فى كشف الغمة » ما وقع فى مصر من الطواعين منذ
أقدم العصور حتى عام ٨٠٨ هـ (١٤٠٥م) . وهى السنة التى انتهى فيها من
تأليف ذلك الكتاب . ويقول إن أخطر تلك الأوبئة ما وقع سنتى ٧٤٧
و ٧٤٨ هـ . (٤٦/١٣٤٧م) على عهد السلطان ناصر الدين بن حسن بن الناصر

(١) نفس المرجع والصفحات .

محمد بن قلاون. (إذ عمَّ هذا الوباء جميع أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً وجميع أجناس بنى آدم وغيرهم، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر، وكانت مظاهر هذا الوباء فى القاهرة ومصر يبصق الإنسان دماً ثم يصيح ويموت) أما فى دمشق فكان يخرج خلف أذن الإنسان خراج صغير فيخر صريعاً، ثم صار يخرج بالإنسان غدة شبه الخراج تحت إبطه، فلا يلبث ويموت سريعاً[1].

وأصيب بهذا الطاعون المؤرخ المعروف الشيخ العينى فوصفه بقوله: وجدت وجعاً تحت إبطى الأيمن ونغزة مؤلمة، ثم نمت، وبرزت تحت إبطى كالخوخة اللطيفة، ثم أخـــذت فى الخفة قليلا قليلا، فذهبت ولله الحمد[2]. (أما الفيلسوف العربى ابن خلدون فيسميه «الطاعون الجارف» لأنه هلك فى يوم واحد بتونس ألف نسمة ومائتان نسمة، وبتلمسان سبعمائة نسمة. ويصفه بأنه كان نكبة كبيرة «طوت البساط بما فيه». وكان من كوارثه فى حياة ابن خلدون، أنه أهلك أبويه وجميع من كان يأخذ عنهم العلم من شيوخه. وهجر تونس — بسببه — معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا منه إلى المغرب الأقصى[3].

(١) السلوك: حـ ٢ قسم ٣ من ص ٧٧٤ إلى ٧٨٧.
(٢) التبر المسبوك ص ٨٧.
(٣) عبد الرحمن بن خلدون للدكتور على وافى ص ٣٨.

وابن بطوطة الذى سبق وصفه لمظاهر الرواج والنشاط الاقتصادى فى مصر أثناء رحلته، يصف أيضاً هذا الوباء المفاجىء بقوله: « شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة ٧٤٩. وأمر نائب السلطان منادياً ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام متوسلين إلى الله أن يرفعه عنهم. وانتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد بدمشق، وإلى أربعة وعشرين ألفاً فى القاهرة[1]. أما القلقشندى فيقول إن هذا الوباء الشهير وقع فى سنة ٧٤٩ (١٣٤٨م.) ولذا ألغيت هذه السنة من الحساب الخراجى حتى كان يقال: «مات فى تلك السنة كل شىء حتى السنة نفسها». ولعل هذه العبارة المريرة أبلغ ماقيل فى وصف هذا الوباء الذى أقام يدور على أهل الأرض مدة خمسة عشرة سنة، وكان المعاصرون يسمونه الفصل الكبير، ويسمونه أيضاً بسنة الفناء[2].

وأدرك المؤرخ أبو المحاسن الوباء العظيم فى سنة ٨٣٣ و ٨٤١ و ٨٤٧ و ٨٤٨ و ٨٥٣ هـ. فكان وباء سنة ٨٣٣ مهولا إلى الغاية بحيث ماتت فيه يومياً من الخلائق ما ينيف عن عشرة آلاف نفر، وقيل أربعة وعشرين ألفاً. ومع ذلك كان أبوا المحاسن يقابل إذ ذاك بالمفترجات والشوارع

(١) ابن بطوطة حـ ١ ص ٧٩.
(٢) النجوم الزاهرة: حـ ١٠ ص ١٩٥ — ٢١٢.

جماعة من العامة يضحكون ويهزلون، ومنهم من كان يقع فيم قُدِّر عليه [(١)].
وخالف طاعون سنة ٨٣٣هـ. بقية الطواعين ، فإن عادة الطعن يقع فى فصل الربيع ، وهذا وقع فى وسط الشتاء ، واستمر يسلسل أربعة أشهر [(٢)].

(ومن طريف مايؤرخ عن طاعون ١٤٣٧/٨٤١م. وهو الطاعون الثانى

الذى وقع فى آخر دولة السلطان برسباى ، أن مات به عدد لا يحصى من مماليك وأطفال وجوار وعبيد . وأصيب السلطان نفسه بوبائه ، وسلسل فى المرض حتى اختلط عقله أو على حد تعبير ابن إياس حصل له « ماليخوليا وخفة عقل ونزق . » مما يجعله يصدر عدة مراسيم غاية فى الغرابة ، منها أنه أمر بنفى الكلاب إلى بر الجيزه ، ومنح مكافأة ماليه لكل من أمسك كلبا ، فأمسك العياق من الكلاب نحو الف . ونادى بمنع النساء من الخروج) وإذا أرادت الغاسلة التوجه إلى ميته . أخذت ورقة من المحتسب ، ووضعتها فى رأسها كى يسمح لها بالمشى فى السوق . وحرم على الفلاح أن يلبس زمطا فى القاهرة . ورسم بقتل بعض الأطباء فوسط الرئيس خضر والرئيس شمس الدين ابن العفيف . واستمر برسباى على هذا الجنون وتلك الخرافات إلى إن مات [(٣)].

---

(١) منتجات ح ١ ص ٨٩ .
(٢) ابن إياس ح ٢ ص ١٨ .
(٣) شرحه ح ٢ ص ٣١ .

(وحينما تبلغ الشدة غايتها، يأكل الناس الميتة من الكلاب والمواشى وبنى آدم ، ويبيع الآباء أبناءهم لشراء القوت ، وينهب الأهالى الخبز من الأفران والحوانيت ، غير مبالين بما ينالهم من الضرب الشديد والعقوبة الصارمة . وكثيرا ما ضبط أشخاص ومع كل منهم كتف طفل صغير أو فخذه أو شىء من لحمه). وكنت لا ترى من الناس إلا باكيا أو متضرعا إلى الله أو مهموما بكثرة عياله ، ولا ترى جماعة بمكان إلا وكلامهم غالبا فى القمح والدقيق والخبز ، وهذا دأب الناس فى تلك الأزمات ، ويكثر ازدحامهم ونهبهم للمخابز والدكاكين .

(ومما يستوجب الالتفات فى طاعون سنة ٨٧٣هـ (١٤٧٨م.) أن معظم من مات فيه من جنس المماليك وأولادهم والصغار والعبيد والجوارى والغرباء ، أما الأصلاء من المصريين فلم يمت منهم أحد فيما يعلم ابن تغربردى [(١)] .)

ومن النوادر الغريبة فى عام ٨٩٧هـ (١٤٩١م.) أن تزايدت الإشاعات بوقوع الطاعون، حتى روى رجل تركى أن ملك الموت جاءه فى منامه، وقال له بقى من عمرك سبعة أيام ، فانتبه الجندى من منامه مرعوبا ، فلما أصبح كتب وصية ، ثم مات فى اليوم السابع كما رأى . وهذا هو الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، وكان مبدأ ظهوره فى حلب ، وفى مدة

---

(١) منتخبات من حوادث الدهور ح ١ ص ٤٧ و٧٩ وج ٣ ص ٧٠٥ .

انقطاعه عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا ، وظلم المماليك للناس ، على قول ابن إياس (١) .

وهنا يتساءل القارىء عن علة هذا القلق الاقتصادى والإجتماعى ؟ .

ولا شك أن تفسيره يرجع إلى عدة عوامل ، بعضها طبيعى والآخر غير طبيعى . فمن العوامل الطبيعية انخفاض النيل وما يترتب عليه من قلة الإنتاج الزراعى وارتفاع أسعار الحبوب وندرة وجودها ، فتنتشر على الفور المجاعات والأوبئه . ومن تلك العوامل أيضاً زحف الصحراء على الأراضى الزراعية عاما بعد عام ، وقيام العواصف الرملية وحمل الرياح للأتربة والأوبئه

ولشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى — صديق المقريزى — كتاب مخطوط بعنوان « بذل الماعون فى أخبار الطاعون . » يفرق فيه بين الوباء والطاعون . وفيه يرجع كثرة موت الفجأة وانتشار السعال بالناس إلى الأهوية المتحركة والأوخام . وفى هـــذا المعنى يقول بعض الشعراء يومذاك :

تغير فى مصر الهواء بأهلها　　بدا وعليه صفرة ونحول

وصح بها موت النسيم وكيف لا　　وقد جاءه الطاعون وهو عليل (٢)

(١) ابن إياس حـ ٢ ص ٣١ و٣٢ و٢٧٣ .

(٢) ابن إياس حـ ١ ص ٣٤٨ وحـ ٢ ص ٣٢ .

أما المقريزى فيفسر ما حل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية إلى عوامل غير طبيعية ، وأهمها « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد » (١) . فلو أن الحكام وقفوا موقفا إيجابيا عمليا من تلك الأزمات، وعالجوها بحزم وهمة ، وأحسنوا توزيع الإنتاج بالعدل والمساواه . لو أنهم فعلوا ذلك لساعدوا على التخفيف من حدة المجاعات وشدة وطأتها على العباد . بل الحاصل أن بعض السلاطين عمد إلى تغيير العملة النقدية المتداوله فى الأسواق وتزييفها والاتجار بها ، واختلف البعض الآخر فى تقدير وزنها . فحينا يكون الرطل منها بسته دراهم ، وأحيانا باثنى عشر درهم ،وأخرى بدرهمين ونصف . وترغم حكومة السلطان التجار والأهالى على التعامل بها وفق القيمة التى تحددها . مما أدى إلى زعزعة الثقه بالسوق الماليه، وإلى إفلاس التجار وأغلاق متاجرهم (٢) .

على أن طبيعة نظام الحكم المماليكى نفسه وعدم استقرار مبدأ نظام الوراثه فى العرش ، أدى إلى كثرة تغيير الدول وقيام الفتن والحروب الأهلية بين أحزاب المماليك فى الطرقات والأسواق وامتداد أيديهم إلى سلب المتاجر ونهبها، مما حمل التجار والصناع على غلق أبوابهم وحوانيتهم

(١) أغاثة الأمة ص ٤ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى إغاثة الأمة ص ٤٧ .

لعدة أيام وأسابيع حتى تهدأ الفتنة ، وخلالها تنتشر المجاعات ويعم القحط والغلاء . فضلا عن أن بعض الولاه والأمراء وصلوا إلى مراكزهم عن طريق الرشوة . وعندما يشترى الوالى منصبه ، كان ينبغى أن يسترد ما دفعه بأسرع ما يمكن ، لأنه لا يأمن أن يبقى فى مركزه أمدا طويلا ، ولأنه يحتاط للمستقبل لكى يتمكن من شراء منصب جديد. ولذا كان طبيعياً أن يفرض الوالى الضرائب على الفلاحين ويجمعها بطرق غير مشروعة حتى تفيض بهم الحال ، فيهجروا أراضيهم فرارا من العذاب والاضطهاد ، وكذلك يفرض الوالى المغارم على التجار والصناع فيغلقوا دكاكينهم .

وتكون النتيجة الطبيعية لهذا السلوك المعيب ، أن تضمحل الزراعة وتبور الأرض ويقل إنتاجها ، وتتوقف حركة السوق وتكسد التجارة وتموت الصناعة، ويقل العرض عن الطلب وتأخذ المجاعة فى الظهور والانتشار.

٣ — تحف نادرة :

إن القاء نظرة على ما استحوز عليه أمير ، أو وزير من تحف ومجوهرات ، وأحجار كريمه وأثاث فاخر ، وذهب وفضه ، وخلع ودواب متنوعة ، يعطى القارىء صورة صادقة عن ثراء مصر آنذاك وكثرة مواردها ، ويفسر علة البلاء الذى نزل بالناس لفساد الحكام وسوء تدبيرهم ، وعدم توزيعهم الإنتاج بالمساواة والعدل بين طبقات الشعب وقد أورد ابن اياس — على

سبيل المثال — بياناً عن ثروة الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير ، والذى أماته السلطان الناصر محمد جوعاً عقب رجوعه إلى سلطنته الثالثه ، واحتاط على موجوده ، فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله فى خزائن الملك . ففى أول يوم وهو الأحد سادس عشر جمادى الأول من سنة سبعمائة وعشر هجرية وجدت صناديق أفرنجى مصفحة بنحاس، ضمنها فصوص ياقوت أحمر بهرمان رطلا، وفصوص بلخش رطلان ونصف ، وفصوص زمرد بابى عشرون رطلا ، وفصوص ألماس وعين الهر بثلثمائة قطعة ، ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا ألف دينار ، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم .

ثم فى يوم الأثنين سابع عشر ، وجد من الذهب الثمين خمسة وخمسون ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف درهم ، ومن الفصوص المختلفة رطلان، ووجد له مصاغ من الذهب ما بين خلاخيل وأساور وزن أربعة قناطير مصرى ، ووجد عنده طاسات فضة وأطباق وأهوان ذهب وطشوط فضة الوزن ستة قناطير .

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ، وجد له من الذهب العين خمس وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف وثلاثون ألف ، ووجد عنده طلعات فضة للصناجق وقطريات فضة ثلاثة قناطير. ثم فى يوم الأربعاء

تاسع عشر ، وجد عنده من الذهب العين ألف ألف دينار . ومن الفضة ثلثمائة ألف درهم ، ووجد عنده أقبية حرير عمل الدار ملون بفرو سنجاب العدة أربعمائة قباء ، ووجد عنده من السروج الذهب مائة سرج والسكك بمياثر زركش على مخمل أحمر ، ووجد له عند صهره الأمير موسى ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها . ووجد له من الشقق الحرير الطردوحشى وغيره ألف شقة .

ووصل صحبته من الكرك من الذهب العين مائة ألف دينار ، ومن الدراهم أربعمائة ألف درهم ، ومن الخلع الملونة ثلثمائة خلعه ، ووجد عنده من الخيام ست عشرة نوبة ، وحزكات خشب بغشاء أطلس أحمر مرقوم مزركش . ووجد عنده من الخيول الخاص ثلثمائة رأس دون الدشار ، ومن البغال مائة وعشرون قطاراً ؛ ومن الجمال مائة وعشرون قطاراً . هذا كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوار وغير ذلك : ووجد عنده من الأغنام والأبقار مالا يحصى . ووجد عنده من الغلال ثلثمائة ألف أردب فى الشون . ثم بعد أيام ظهر له مخبأة فى داره فيها ، أكياس ذهب لا يعلم لها عدد . ووجد له فى بيت قريب من بيت الخلاء مخبأة ، فيها ذهب عين مسبوك بغير أكياس لا يعلم له عدد . وكان متحصل الأمير سلار

هذا فى كل يوم من أجرة أملاكه وضياعه ومستأجراته وحماياته مائة ألف دينار .

واسترعت هذه الثروة الطائله التى كان يملكها الأمير سلار نظر المؤرخ ابن اياس ، فتساءل من أين له هذه الثروة ومتى جمعها مع أنه لم يمكث فى نيابة السلطان سوى أحد عشر عاما ؟ وأجاب ابن اياس نفسه على هذا التعجب بقوله « إما أنه كان قد ظفر بكنز من كنوز القدماء ، وإما أنه كان أخذ هذه الأموال والتحف من خزائن بيت المال ، عندما توجه الملك الناصر إلى الكرك وقد كانت مفاتيح بيت المال بيد سلار ولا يمكن منها الملك الناصر بشىء » . وسواء كان مصدر هذه الثروة كنز قديم أو خزائن بيت المال ؛ فإنها أصلا مالك هذا الشعب المغلوب على أمره ، وآلت كلها إلى السلطان الناصر على قول ابن اياس [1] .

وحسب القارىء أن يقف كذلك ، على قوائم أملاك وأموال الوزير علم الدين ابن زنبور ، كى تتضح الصورة فى ذهنه عن عمليات السلب والنهب واستغلال النفوذ ، فى جمع خيرات وثروات هذا البلد الطيب وحرمان بنيه منها . وكان مبدأ أمر ابن زنبور أنه باشر استيفاء الوجه القبلى على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . فلما حمدت سيرته ، خلع عليه السلطان ، واستقر به كاتب الاصطبل ، وأعجب به لفطنته حتى مات الناصر ، وولى السلطنة ولده

(١) حـ ١ ص ١٥٥ — ١٥٦

الملك المنصور أبى بكر، فأقر ابن زنبور هذا فى نظر الخاص، ثم أضيفت إليه نظر الجيش وجمع بعد مدة إليهما الوزارة، ولم يتفق لأحد قبله بالجمع بين الوظائف الثلاث. فعظم أمره وقويت مهابته، واتسع متجره، وكثر ماله، فكثرت حساده، وأشاعوا انه باق على النصرانيه، وإرتد عن الاسلام، وإن جميع مابيده من الدور والبساتين والاراضى اشتراه من مال السلطان – أى الدولة – دون ماله، وإنه ملك السلطان ليس له فيه شىء. فأمر السلطان بالقبض عليه ومصادرة موجوداته من صامت وناطق [1]، فكان بيانها كالآتى :

قماش ملون ما بين صوف وحرير الفان وستمائة قطعه، منها مفرى بسمور ووشق وسنجاب وقاقوم الفا قطعه، جنداب بوجهين ستمائة قطعه جبينات خمسه الاف قطعة. أوانى ذهب وفضه زنتها نحو ستين قنطارا. صناديق ضمنها فصوص ملون مابين ياقوت والماس وعين هر وحبات لؤلؤ كبار، وزن ذلك نحو قنطارين. وكسور صناديق ضمنها لؤلؤ حب فاعتبروه بالكيل، فكان نحو أردبين بالمصرى. صناديق ضمنها ذهب عين جملته ستمائه الف دينار. حوائص ذهب سته الاف حياصه كلوتات زركش سته آلاف كلوته.

(١) الصامت والناطق : اصطلاح اقتصادى تداوله رجال المال والأعمال فى العصور الوسطى الإسلامية، حين فرقوا بين نوعين من المال : الصامت وهو النقد والورق وسائر المصوغ منها والأمتعة والمعادن والمدخرات والمفروشات والعقار بأنواعه. ثم الناطق وهو الرقيق والكراع كالخيول والحمير والإبل والماشية من غنم وبقر وجاموس الخ.

ووجد له ودائع عند الناس فى أماكن عدتها سته وثلاثون مكانا، مايعلم مافى الصناديق التى وجدت بها. ووجد له فضة نقرة محررة بالكيل فكانت ثلاثين أردبا بالمصرى. حواصل فيها شاشات العدة ثلثمائة الف شاش، حواصل فيها بسط رومى وسقاعة من سائر الالوان خمسة وثلاثون الف قطعة. أنطاع (جمع نطع وهو البساط من الجلد) كبار وصغار ثلاثون الف نطع. ومن الخيول والبغال والجمال عشرون ألف رأس. ووجد له فى خبيَّة تحت سلم سبعمائة ألف دينار. ووجد له عبيد وجوار سبعمائه رأس، ومن المماليك الروم خمسون مملوكا، ومن الخدام الخصى مائة رأس. ووجد له فى حاصل نحو من ثلاثين ألف قطعة صينى مابين لازورد وأخضر وشفّاف. ووجد له من النحاس الأصفر المكفت والنحاس الأبيض نحو من أربعين ألف قطعه.

ووجد له من الاملاك والضياع والمسقفات سبعة آلاف مكان، قومت بثلثمائة ألف دينار. ووجد له من المعاصر خمسه وعشرون معصرة، وبها من القنود السكر مالا ينحصر وزنه. ووجد لاولاده اقطاعات حلقة سبعمائة اقطاع، ووجد له فى حاصل من السروج الذهب والفضه والكبابيش الزركش والبدلات وعدد الخيل، قوموا ذلك بثلاثين ألف دينار. ووجد له مخازن فيها بضائع وبهار، قوموا ذلك بأربعمائة ألف دينار. ووجد له من المراكب ستمائة مركب. ووجد له من البساتين والغيطان مائتا بستان. ووجد له من السواقى فى البلاد ألف واربعمائة ساقيه. ووجد له من الأبقار

الحلابة والأغنام السياق ثلثمائة ألف رأس ، ووجد له من الغلال مابين قمح وشعير وفول مالا ينحصر كيله .

ووجد له ودائع كثيرة عند الناس من قماش ونحاس ومال وغير ذلك مالا ينحصر قدرة . والذى ضاع له عند الناس والغلمان ونحو ذلك شىء لاينحصر . وكان له أربع نسوة ، ومائتا سريه . وهذا الموجود لم يسمع بمثلة ولا عند الخلفاء على قول أبن اياس والمقريزى [١] وبيع ذلك كله بنصف قيمته . أما الوزير علم الدين ابن زنبور صاحب هذه الثروة الطائله فنوع فى عقوبته . وضع فى السجن وأخرج بكرة كل يوم وفى عنقه حلقة وجنزير ، وضرب عريانا . ثم أعيد إلى موضعه وعصر وسقى الماء والملح ، ثم نفى إلى قوص حيث أمر بقتله . وماذا تعنى هذه الأعاجيب والنفائس من تلك المدخرات والجوهرات ؟ ؟

الحق، إنها تفسر الأصل التاريخى لعادة ملء الأزيار والزلع والجرارى بالذهب واللؤلؤ م الجواهر وإخفاءها فى أماكن بعيده عن أعين الحكام واللصوص . ورغم أن هذه العادة قديمة قدم البشريه الحريصه على جمع المال، فإن السبب فى زيادة الحرص عليها فى المجتمع المصرى المماليكى ترجع إلى طبيعه نظام الحكم المملوكى . فملك مصر فى عصر المماليك « إنما هو سلطان ورعيه » على وصف ابن خلدون . سلطان يحكم ويستبد بواسطه فئه قليله

(١) راجع : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٩٧ و ١٩٨ ، والسلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٧٨٧ وما بعدها .

من مماليكه وأمرائه . ورعيه تمثل فئات أهل مصر مغلوبة على أمرها . وجرت عادة السادة الحاكين الاكثار من تغيير دولهم . وترتب على هذا التغيير إشعال الثورات والفتن والحروب بين أحزابهم . فإذا ما انتهت المعارك بانتصار فريق على الآخرين قام بمصادرة ممتلكات المغلوبين . فلا غرابة أن يحسب كل أمير حساب هذا اليوم الموعود ، فيدخر من الاموال والنفائس وهو فى أوج سطوته ، مايعينه على الحياه وهو فى بؤسه وشقائه . وبدلا من أن يثمر الأمير أمواله ومدخراته فى زيادة الانتاج وتوفير المعايش للناس ، يفضل أن يجمعها ويكدسها فى خبايا وسراديب تحت جدران الحائط أو السلم ، أو يهربها عند أقاربه وأصدقائه .

وكيفما كان أمر هذه التحف النادرة والأموال الوفيرة التى جمعها السلاطين والأمراء من وجوه المظالم والجور ، فانها آلت فى نهاية الأمر إلى السلطان سليم العثمانى من غير تعب ولا مشقة عام فتحه مصر سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م.) إذ حمل معه على الف جمل أحمالا من الذهب والفضه والتحف والسلاح والصينى والنحاس . ونزع من بيوت مصر أثمن ما فيها من منقول وثابت ، حتى الاخشاب والبلاط والرخام والأسقف والأعمده السماقية بايوان القلعه . وأمر بحبس الف وثمانمائة من المصريين من رجال الحرف والصناعات والقضاة والتجار والمهندسين ، ليرسلوا إلى اسطنبول ، فبطلت من

القاهرة نحو خمسين صنعه على قول معاصر [١] .

وتكشف هذه التحف النادرة أيضا عما جلبه موقع مصر الجغرافى الفريد بين الشرق والغرب من ثروات ورخاء لم يتوفر لقطر آخر . فمصر العصور الوسطى كانت ملتقى الطرق التجارية العالمية . ترد إليها من السلع الشرقية والغربية النادرة مالا يخطر على بال بشر . غير أن هذه الثروة الطائله على سعتها وكثرتها لم يسعد بها إلا طائفه المماليك الحاكمه ، وهى أقليه عسكرية أليجاركية ، أما طبقات الشعب المصرى الأصيله فعاشت فى بؤس وحرمان ، يطحنها الغلاء والآفات الاجتماعية من أوبئه ومجاعات وأمراض . وهنا كان يصدق قول القائل . أرض مصر ذهب وهى لمن غلب . أما الآن فذهبها لأبنائها الكادحين من قوى الشعب العامله المتحالفه .

وتكشف صحافة اليوم عن وسائل اخفاء الإقطاعيين والرأسماليين لأموالهم وثرواتهم وعقاراتهم ، وتحايلهم بشى الطرق على تهريبها وعدم تطبيق قانون الإصلاح الزراعى والقوانين الإشتراكية الهادفة إلى العدالة الإجتماعية والمساواة بين المواطنين . الأمر الذى يذكر القارى بما كان جارياً فى عصر المماليك من تنوع وسائل التهريب والتخزين ، وتعدد أسماء القدور الخاصة بذلك ، مثل الأزيار والزلع والجرات والبكل والبرانى ، فضلا عن البقج والحوائص والحفر . إلخ . حقا ما أشبة اليوم بالامس . !

(١) بدائع الزهور حـ ٣ ص ١١٩ و١٢٣ .

الفصل الخامس

صوت الشعب

١ — مواقف جريئة

٢ — النكتة الشعبية

الفصل الخامس

صوت الشعب

(ومهما يكن من استبداد المماليك وظلمهم ، وما زرعوه فى النفوس من خوف وقلق ورعب ، فإن فئتين من فئات الشعب استطاعت أن تعبر بصوت حر جرىء عن آلام الشعب وآماله . هما فئة رجال الدين وفئة العوام)

١ — مواقف جريئة :

أما رجال الدين فقد جرت قاعدة المماليك على الاستعانة بهم فى إدارة الشئون الدينية والمدنية فى دواوين السلاطين والأمراء ، فاستطاع بعض المشايخ أن يوجه مصائر الأمور دون أن يسلك سلوكا معيبا ، كما استطاع البعض الآخر أن يتمتع بنفوذ وامتيازات واسعة ، وأن يحسن استعمال السلاح والاشتراك فى الحروب ، ولم يحجم نفر منهم عن المعارضة السافرة للسلاطين ، غير مبالين مايحيق بهم من عذاب واضطهاد .

ومن أمثلة هذا النفر الحر الجرىء ، شمس الدين بن عطاء الأذرعى الدمشقى الذى اعترض على السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م .) حين قدم مشروعا بمصادرة بعض الأملاك والبساتين بدمشق لمجلس القضاة الأربعة والعلماء المنعقد بدار العدل . وخشى القضاة سطوة الظاهر فلم يعترضوا على المشروع ، أما القاضى شمس الدين هذا فصدع بالحق وقال « ما يحل لمسلم أن يتعرض لهذه الأملاك

والبساتين فإنها بيد أربابها ؛ ويدهم ثابتة عليها » فغضب السلطان الظاهر من قوله ، وقام من دار العدل وقال « إذا كنا مانحن مسلمون . إيش قعودنا » فسكن الأمراء غضبه ، وعظم فى عينه هذا القاضى وهابه(١)

وعظم السلطان الناصر محمد شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية (٦٦١ – ٧٤٨ هـ) الدمشقى الدار والوفاة ، وعقد له المجالس بالقاهرة ودمشق ، فصال فيها وجال وسلط رأيه الحر على المخالفين من أهل الأهواء والمبتدعين ، والتف حوله الناس وأعجبوا به ، وتوجس السلطان خيفة من رأيه ومن قلمه ، فحبسه عدة مرات بالقاهرة والإسكندرية ثم أعاده إلى دمشق ، فظل بها حراً طليقاً إلى أن كانت أيام السلطان شعبان فضيق عليه ، وأمر بأن يقيم فى إحدى قاعات قلعة دمشق ويشغل وقته بالتصنيف بعيداً عن الناس . ولم يكد يحبس كالطائر فى القلعة حتى حرموه من متعته العقلية ، فأخرجوا ماعنده من الكتب ، ولم يتركوا عنده دواة ولا قلما ولا ورقة ، فمات محسوراً بالقلعة (٢)

لقد تعرضت البلاد فى بعض عهود الركود والتخلف إلى أزمات مالية حادة اختل بسببها ميزان الوارد والمنصرف ، فاضطرت الدولة إلى

(١) النجوم الزاهرة ح ٧ ص ٥٤٦ و ٢٧٠ .

(٢) المنهل الصافى : ح ١ ص ٣٣٧ .

الضغط على مصروفاتها، والدعوة إلى التقشف، ومحاربة البذخ والإسراف، مع زيادة المواد الإنتاجية الضرورية والإقلال من المواد الـكمالية. ولـكن ما السبيل إلى تنفيذ تلك السياسة ؟

لم يكن من سبيل أمام وزير الدولة منجك فى سنة ٧٥٠ (١٣٤٩م.) إلا أن يستعين برجال الدين الذين يملـكون سلطة الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر، فيدعوهم إلى اجتماع بدار العدل تشاور فيه مع قاضى القضاة والقضاه وكبار الأمراء بحضره السلطان، حول ما أحدثه نساء السلطان وجواريهن من قمصان طوال تخب أذيالها على الأرض، بأكمام سعة الـكم منها ثلاثة أذرع وعرف القميص منها بالبهطلة ويتكلف ألف درهم، وأنهن أبطلن لبس الإزار البغدادى وأحدثن الأزار الحرير بألف درهم، وأن خف المرأة وسرموزتها بخمسمائة درهم. ناقش المجتمعون أثر هذه الموديلات الجديدة فى الغلاء الذى تعانى منه طبقات الشعب، وأن نساء القاهرة تشبهن بنساء السلاطين فى تغيير زيهن ومجاراتهن فى ملابسهن، على حين تجد طبقات العامة مشقة كبرى فى الحصول على ضروريات الحياة من ملبس ومأكل، وأفتى المجتمعون الوزير بأن هذا من الأمور المحرمة التى يجب منعها.

وبعث الوزير أعوانه على الفور وإلى بيوت أرباب الملهى حيث كان كثير من النساء، فهجموا عليهن، وأخذوا ما عندهن من ذلك، كما كبسوا

مناشر الغسالين ودكاكين الصقل (المـكواجيه) وأخذوا ما فيها من قمصان النساء، وقطعها الوزير منجك. ووكل مماليكه بالطواف فى الشوارع والطرقات، وقطع أكمام النساء.

ونادى الوزير فى القاهرة ومصر بمنع النساء من لبس ما تقدم. ونصبت أخشابا على سور القاهرة بباب زويله وباب النصر وباب الفتوح، وعلق عليها تماثيل معمولة على صور النساء وعليهن القمصان الطوال، إرهابا لهن وتخويفا. وطلبت الأساكفه، ومنعوا من بيع الأخفاف والسراميز المذكوره، وأن تعمل كما كانت أولا تعمل. ونودى من باع إزار حرير أخذ جميع ماله للسلطان، فانقطع خروج النساء إلى الأسواق وركوبهن حمير المـكاريه. وإذا وجدت امرأة كشف عن ثيابها. وامتنع الاساكفه عن عمل أخفاف النساء وشراميز هن المحدثه. وكف التجار عن بيع الإزر الحرير وشرائها، حتى إنه نودى على إزار حرير بثمانين درهما، فلم يلتفت له أحد، فكان هذا من خير ما عمل على قول المقريزى [1].

وهل تستطيع حكومة ما، مهما بلغت من القوه أن تتصدى مشيئة نساء السلطان ورغباتهن ؟ وأن تناقش فى حضرة السلطان أمراً حساساً كقمصان نسائه ؟ هل تستطيع حكومة أن تفعل ذلك دون مساندة من

(١) السلوك حـ ٢ قسم ٣ ص ٨١٠ و٨١١.

رجال الدين. أليس هذا مظهر من مظاهر قوتهم ومكانتهم فى المجتمع المملوكى؟

وآية أخرى من آيات قوتهم تتمثل فى الشيخ شمس الدين الركراكى المالكى الذى رفض الموافقة على الفتوى التى وقعها العلماء بقتل السلطان الظاهر برقوق المخلوع بتهمة الاستعانة بالكفرة على المسلمين، فضربه الاتابكى منطاش مائة عصاه وسجنه بالإسطبل [1]. ولما احتاج السلطان قايتباى للمال لاعداد حملة عسكرية إلى الشام لاخماد فتنة شاه سوار، عقد مجلس الخليفه والقضاه والأمراء للموافقه على فرض زيادات على الناس فى أرزقهم ووظائفهم واقطاعاتهم وفائض أوقافهم. ووافق المجتمعون على رغبة السلطان فيما عدا الشيخ أمين الدين يحيى بن الأقصر أبى الحنفى، شيخ المدرسة الأشرفية برسباى الذى أنكر على السلطان حقه فى فرض تلك الضريبة، وأجابه بأنه لايحل للسلطان أن يأخذ مال أحد إلا بطريق شرعى، ولو فقد ما فى بيت المال فلا يأخذ من أحد شيئاً، حتى ينفذ ما بأيدى الأمراء والجند من الأموال والمتاع والأقمشة مما لايحتاج إليه فى الحرب. وانفض المجلس على غير رضى السلطان وإقماعه عن الوصول إلى مراده بفضل معارضة الشيخ أمين هذا. وكان المعلوم عند كل أحد من المعاصرين، أن أرباب الوظائف والقضاة لا يميلون

(١) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٥٦ .

إلا حيث مال السلطان" والقول مايقوله السلطان، فما بقى بعد ذلك إلا الإذعان والوزن لما أشار به الملك، على قول مؤرخ معاصر [1]. حقاً، إن مما اتصف به الشيخ أمين الدين يحى من الشجاعة الأدبية وحرية الرأى مما لايتوفر فى أحد البرلمانيين فى أعرق الديموقراطيات الحديثة.

وقاد الشيخ شمس الدين الديروطى المتوفى ٩٢١هـ (١٥١٥م). حملة كلامية ضد السلطان الغورى، أتهمه فيها بالتقصير فى شأن الجهاد وضاق السلطان به، وتسامع الديروطى بذلك فمضى إليه، حتى إذا حياه استقبل السلطان تحيته بالصمت. فقال الشيخ «إن لم ترد السلام سقط وعزلت» فقال السلطان «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ثم قال الشيخ. علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد. قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان. أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام؛ ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق. عما قريب يصيبك المرض الذى لاينجح فيه طب، ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبراً مظلماً، ثم يدسون أنفك هذا فى التراب، ثم تبعث عاريا عطشانا جائعاً. ثم تقف بين يدى الحكم العدل الذى لايظلم مثقال ذرة. ثم ينادى المنادى من كان له حق أو مظلمة فليحضر على الفور، فيحضر

(١) منتخبات جـ ٣ ص ٥١٦ و ٦٣٦ .

خلائق لا يعلم حصرها إلا الله ... وأرسل السلطان فى طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال . والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه فمارؤى أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان فى ذلك المجالس . على قول الشعرانى فى الطبقات الكبرى [1] .

وَيَروْى ابن إياس كائنة الزينى بركات بن موسى مع الشيخ أبى السعود وسببها أن شخصا مَدَا بِغيًّا يبيع الجلود يقال له الدمراوى كان مكاسا على بيع الجلود ، فجار عليه ابن موسى ، ووقع بينهما حظ نفس ، فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى إلى الشيخ أبى السعود واحتمى به فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة إلى ابن موسى بسبب ذلك وقد شفع فيها . فتوقف ابن موسى فى أمره ولم يلتفت إلى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى . فأرسل الشيخ إلى ابن موسى فأحضره ، فلما حضر عنده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له . يا كاب كم تظلم المسلمين ؟ فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا ، فأمر الشيخ بكشف رأس بن موسى وضربه بالنعال ، فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد أن يهلك ثم وضعه فى مكان ، وأرسل خلف الأمير علان الداوادار الكبير ، فلما حضر قال له ضعه فى الحديد ، وطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذى المسلمين . فلما طلع الأمير علا وشاوره فى أمرا بن موسى

(١) عن التصوف فى مصر إبان العهد العثمانى لتوفيق الطويل ص ٤٩ .

وما جرى له مع الشيخ أبى السعود ، وأرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود مهما اقتضاه رأيك فيه فافعله ، فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر بإشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنقونه على باب زويلة . فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح ، وهو ماشى مكشوف الرأس فى الحديد ينادى عليه . هذا جزاء من يؤذى المسلمين ، فتوجهوا من كوم الجارح إلى ساحل مصر العتيقة وهم ينادون عليه [1] » ..

هذه بعض مواقف لرجل الدين . تكشف عن مكانته ومهابته ، ودوره الطليعى فى تاريخ حركة الكفاح الوطنى ضد ظلم الحكام وبغيهم. ولم تكن الوكالة التى آلت لعلماء الأزهر من الشعب المصرى فى بداية القرن التاسع عشر ، الإامتدادا للمواقف الفردية الجريئه الواضحه التى وقفها شيوخه فى العصر المملوكى . لقد تصدوا فى جرأة نادرة السلاطين والأمراء ونهروهم ، فعرفوا قدرهم وبجلوهم وقوموهم على أنفسهم ، وقبّلوا قدم من يعتقدون فى قداسته منهم ، ولا يشذ عنهم فى ذلك التقبيل فحولهم أمثال بيبرس وبرقوق وقايتباى . وكان أقسى المماليك وأشرسهم خلقا ، يلوذون بالأزهر ويحتمون بشيوخه حتى آخر ايامهم. فالعلماء هم الذين توسطو الدى نابليون فى الإفراج عن المماليك المسجونين وأضافوهم فى الأزهر حسبما ورد فى يوميات الجبرتى ونصه « وتشفع أرباب الديوان فى أسرى

(١) بدائع الزهور : حـ ٣ ص ٧٥ .

المماليك ، فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم ، فدخلوا الجامع الأزهر وهم فى أسوأ حال وعليهم الثياب الزرق المقطعة ، فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ، ويتكففون المارين وفى ذلك عبرة للمعتبرين .[١]

لقد ظل الشيوخ يؤدون واجبهم الدينى والقومى بأمانة وشجاعة،وحسبك ماورد فى تاريخ الجبرتى من أن الشيخ حسن الجداوى طلق إحدى سيدات القاهرة فى غيبة زوجها، على أيام الأمير يوسف بك الكبير وهو من أمراء أبى الذهب ، فاشتكى الزوج إلى هذا الأمير ، فأراد هذا الأخير أن يعطل الطلاق فثار المشايخ وذهبوا إليه ، وصرخ عليه الشيخ على الصعيدى وسبه وقال له « لعنك الله ، ولعن اليسرجى الذى جاء بك ، ومن باعك ومن اشتراك ، ومن جعلك أميرا ؟ .. » .

ونهب العرب قافلة لبعض تجار القاهرة فذهب هؤلاء يشكون للوالى، فقال لهم هذا إنهم يستحقون ذلك بسبب تحايلهم على عدم دفع المكوس، فأجابه بعضهم وهو السيد باكير وقال له : « يامولانا الوزير جرت العادة أن التجار يفعلون ذلك ويقولون ما أمكنهم ، وعلى الحاكم التفتيش والفحص .فاغتاظ من جوابه.وقال . انظروا هذا كيف يجاوبنى ويشافهنى ، ويرد على الكلام والخطاب.مارأيت مثل أهل هذه البلده ولاأقل حياء منهم. وصارت يده ترتعش من الغيظ[٢].

(١) يوميات الجبرتى ح١ ص٦٠ .

(٢) تاريخ الجبرتى . ج ٢ ص ٩٣ وما بعدها.

٣ — النكتة الشعبيه :

أما النبع الحقيقى الذى انفجرت منه الإرادة الشعبيه المعبرة عن آلام وأمال جميع الطبقات فكان من الفئة التى أسماها المعاصرون العوام أو العامة ، ويقصدون بهم صغار التجار والعمال والصناع والباعه والسوقه والسقايين والمكاريين والمعدمين، وغيرهم من فئات المتعطلين والشاحاذين وأوباش الناس وصعاليكهم ودعارهم والصبيان والزعار والعياق والمنخرطين فى مناسر الحراميه والحرافيش[١] ويتمثل الدور الطليعى لهذه الفئات الشعبيه فيما خلفه العصر المماليكى من أزجال ومواويل ونكات، وتواشيح، وبلاليق[٢]، وغيرها من الوان الأدب الشعبى المعبر عن روح المرح والمزاح التى اشتهر بها شعب مصر فى كل زمان ومكان،فضلا عن المغزى السياسى الذى تعنيه النكتة فى ذلك العصر الملىء بالشدائد والحرمان .

الواقع أن فضل نشأة هذا اللون الجديد من الأدب الذى انفردت به مصر، يرجع إلى ابن مماتى مؤرخ العصر الأيوبى فى كتابه « الفاشوش فى حكم قراقوش » وكان يرمى إلى السخريه من الترك وحكمهم . فما بالك وقد انتقل الحكم من العصبيه الايوبيه الكرديه الحرة إلى طوائف المماليك الذين مسهم الرق . لم يرض المصريون بهذا التغيير ولم يهضموا فكرته، مهما أوتى المملوك من صفات الشجاعة والكرم الحميدة، بدليل

(١) الزعار والزعرة والزعر جمع زاعر وهو اللص والمحتال والعيار والحرفوش والمتشرد . اتعاظ الحنفا ص ١٧٤ حاشية ٤ ت

(٢) جمع بليق وهو الأغنية الشعبية ، وتكون عادة هزلية الألفاظ والمعانى .

أن المعز أيبك كان ملكا شجاعا ، كريما عاقلا سيوسا ، كثير البذل للأموال . أطلق فى مدة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك مالا يحصى كثرة، حتى رضى الناس عامة بسلطان مسه الرق. أما أهل مصر خاصة فلم يرضوا به، إلى أن مات وهم يسمعونه ما يكره، حتى فى وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون لا نريد إلا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة .

وصرح الأمير العربى الشريف ثعلب الجعدى « بأنَّا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنَّا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد » وأنف عرب مصر خاصة من خدمة الترك، وقالوا إنما هم عبيد للخوارج [1] . على قول المقريزى، الذى يقول أن العامة كانوا يتظاهرون تحت نوافذ القلعه أيام قلاوون صائحين « يابو عيشه اركب وكون طيب يابو عيشه » . وذلك حين احتجب خوفا من ثورة المماليك الصالحيه والظاهرية عليه .

واشتهر عصر الناصر محمد بن قلاوون بغزارة نكاته وتنوعها، لطول عهده البالغ اثنين وأربعين عاما وبضعه أشهر ، اتسمت فيها العلاقه بين السلطان الناصر والعامة بالانسجام والرضى حينا، والسوء والعداء حينا آخر حسبما ورد فى نكات عصره . ومنها أن الناصر محمد خلع عن العرش مرتين : الأولى سنة ١٢٩٦م بحجة صغر سنه، وكان اثنى عشر عاما وقتذاك

(١) السلوك حـ ١ قسم ٢ ص ٣٨٦ .

والثانية سنة ١٢٩٨ م . ولم يتجاوز الرابعة عشره من عمره . وسلطن الأمراء نائبه الأمير بيبرس الجاشنكير ولقبوه بالملك المظفر ركن الدين ، أما أتابكه سلار فعينوه نائبا للسلطنه . ونفوا الناصر محمد إلى حصن الكرك بمملكة الأردن الحاليه . ولما لم يكن للشعب رأى فيما حدث من تغييرات فانه حنق على الأمراء ، وأظهر العطف على السلطان الناصر المخلوع . ومن توافق الصدف أن يتوقف النيل تلك السنه (٧٠٩ هـ) عن الوفاء وتَشْرَق البلاد، وتشحط الغلال ، ويرتفع الخبز من الاسواق ، ويضج العوام ويخرجون فى مظاهرات بشوارع القاهرة ، وهم يضحكون ويهزلون ، ويصنعون كلاما ويلحنونه . وصاروا يغنونه فى أماكن التفرجات ، وفى الحدائق العامه والطرقات ، وهو هذا :

سلطاننا رُكَين . ونائبنا دُقين . يجِينَا الماء مِنَين. جيبُوا الأعرج، يجى الما ويدَّحرج [1] .

ويقصدون بلفظ ركين السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وبلفظ دُقين نائبه الأمير سلار ، فانه كان أجرد وليس بلحيته وشاربه سوى شعرات قليله ،وأما الأعرج فهو الناصر محمد بن قلاوون لأن « برجله اليمنى ريح شوكة تُنغِّص عليه أحيانا وتؤلمه ، فلا يكاد يمس بها الأرض

(١) السلوك : حـ ٢ قسم ١ ص ٥٥ .

ولا يمشى إلا متكئا على أحد ، أو مُتكئا على شىء ولا يصل إلى الأرض
إلا أطراف أصابعه » . على قول المقريزى[١] .

فشت هذه الأغنية بين عامة مصر ، وعلم بها السلطان بيبرس الجاشنكير
فرسم بالقبض على نحو ثلثمائه من المتظاهرين وضرب منهم جماعة بالمقارع
وأشهرهم فى القاهرة ، ورسم بقطع ألسن جماعة منهم ، وانضم بعض
الأمراء إلى المعارضة الشعبية ضد بيبرس ، وكاتبوا الناصر فى منفاه بالكرك
وعلم بيبرس بخبرهم ، فقبض على جماعة منهم ونفاهم إلى الاسكندرية
وقوص .

ونفرت القلوب عامة من بيبرس وعم الاستياء ، وهرب تسعون من
الأمراء تحت جنح الليل إلى الناصر بالكرك يدعونه للسلطنه ، فقبل الدعوه ،
وكاتب نواب حلب وحماه وحمص وطرابلس وصفد لنصرته ، فتعصبوا له وأيدوه
ضد نائب دمشق وسلطان القاهره . وخرج الناصر من الكرك إلى دمشق
فدخلها فى موكب عظيم . ولما وصل خبر ذلك إلى بيبرس بالقاهرة اضطربت
احواله ، وضاقت عليه الارض بما رحبت وخلع نفسه من الملك ، ومن عجائب
الاتفاق أن الساعة التى خلع فيها الملك المظفر بيبرس نفسه من الملك بالقاهرة

(١) الخطط : حـ ٢ ص ٦٨ و ٣٠٥ .

كانت هى الساعة التى ركب فيها الملك الناصر من الشام على رواية
ابن اياس[١] .

وهكذا كان للنكتة الشعبية من قوة التأثير والفاعلية ـ ما للصحافة
اليوم ـ فى إسقاط عروش وإقامة أخرى ، ولم يضعف حرمان العامة من الإسهام
فى حكم بلادهم ، أو قسوة المماليك فى عقاب من يخرج منهم عن طاعتهم .
لم يضعف هذا الحرمان روح المرح والتهكم على الأمراء ونعتهم بألقاب
تعبر عن طبيعة سلوكهم ، مثل الأمير عز الدين إيفان المعروف « بسم الموت »
لجسارته وفتوته وسرعة انقضاضه على العدو . ولقبوا ناصر الدين متولى
حسبة مصر « بفأر السقوف » . لكونه فتَـنِى . والأمير قطلوبغا الفخرى
« بالفول المقشر » كناية عن لين عريكته وضعفه . وأطلقوا على الأمير
طشتمر البدرى نائب حلب على عهد الناصر محمد لقب « حمص أخضر »
لكثرة صدقاته على الأيتام المعووفين بالحرافيش .

وبلغ من أعجاب العامة بالأمير حمص أخضر وحبهم له أنه حينما غضب
السلطان الناصر عليه وسجنه ، خرج العامة فى مظاهرة إلى القلعة ، ووقفوا
بأسفلها بالميدان ؛ وصاحوا بلسان واحد « يا أعرج النحس إخرجه »
ويقصدون السلطان الناصر ؛ فصدع لصياحهم وأخرجه من السجن على

(١) بدائع الزهور : حـ ١ ص ١٥٢ .

كره منه ، فعد ذلك نصراً كبيراً لصوت الشعب الذى يكره الظلم والبغى؛ ويثور من أجل أعلاء كلمة الحق وإنصاف الضعفاء ، . وتبدو هذه الروح الوطنية القوية فيما ذكره بعض الشعراء تخليداً لهذا الأمير كثير الصدقات .

عهدى به كان شديد القوى　　أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم تقولوا حمصًا أخضراً　　تعجبوا بالله كيف اندرس،

وذلك حينما نفاه الملك شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد إلى الكرك ووسطه بالسيف فى ميدانها وحزنت العامة عليه (٢)

وطال حكم الناصر محمد، وسئمت العامة بعض أفعاله، وخصوصاً أعمال السخرة التى دأب ولاته على ممارستها فى غير رحمة ولا شفقه، فأنتهزوا فرصة قيام الناصر محمد بجمع أموال من الناس لإعداد حملة لإخراج جيوش السلطان محمود غازان من الشام ، حتى انطلقت ألسنة العامة فى مصر والشام بالنقد اللاذع ، والمداعبات الفكهة والتعبير الجارح لجنده ؛ فيقولون لهم « بالأمس كنتم هاربين ؛ واليوم تريدون أخذ أموالنا » . فإن أجابهم الجندى قالوا له « لم لا كانت هذه الحرمة فى المغل الذين فعلوا بكم كيت وكيت ؛ وهربتم منهم » . . فلما فحش أمر العامة فى التهكم بالجند، صار الواحد منهم يغير زيه حتى يقيم بدمشق خيفة من تبويخ العامة له ، حتى حلق بعضهم شعره ؛ وصار يُغَيِّر

(١) السلوك : ح ١ ص٥٢٣ قسم٣ و ح ٢ ص ٦٤٤ وابن إياس ح ١ ص١٧٦

دبوقه . وخاف الناصر محمد من هذه الحرب النفسية التى أعلنها العامة على عسكره حتى كادت تقتل معنويتهم . فأمر بالمناداة فى القاهرة ومصر « أى عامى تكلم مع جندى كانت روحه وماله للسلطان » . . . وأمر بهدم ما بالقاهرة من حوانيت صناع النشاب والمناداة بشنق من عمل نشابا، وحرم جميع مرامى النشاب . وغلقت حوانيت القواسين ؛ وأن يحمل الأجناد النشاب فى السفر دون الحضر (١) وذلك لتحاشى قيام فتنه يثيرها العوام بين الجند ، بإذاعة نكاتها المسمومة .

ومن طريف مايذكر فى هذا الصدد ؛ أن السلطان الناصر محمد جلس فى بعض أيام العرض فى البستان بقلعة الجبل وعنده الخاصه من الأمراء ، فدخل رجل مضحك إعتاد أن يهزل بحضرته، فيضحك منه ويعجب به، ولا يعترض فيما يقول، فأخذ فى السخرية على عادته ليضحك السلطان، إلى أن قال . وجدت بعض أجناد الروك الناصرى ، وهو راكب الأكديش وخُرجه خلفه ، ورمحه فوق كتفه ، يقصد بهذا السخرية والطعن فى جند السلطان ، فغضب غضباً شديداً وصاح . خذوه وعروه ثيابه . فتبادره الأعوان وجروه برجله ، ونزعوا ثيابه، وربطوه فى الساقية مع القواديس،

(١) السلوك : ح ١ قسم ٣ ص ٩٠٧ — النجوم : ح ٨ ص ١٢٤ و ح ٩ ص ١٤٠ ؛

وأكثروا من ضرب الأبقار حتى أسرعت بدوران الساقيه ، فصار المسكين يتقلب مع القواديس ، ويغطس فى الماء تارة ويرق أخرى ، ثم ينتكس والماء يمر عليه مقدار ساعة ، إلى أن انقطع حسه وأشرف على الهلاك ، واشتد رعب الأمراء لما رأوا من قوة غضب السلطان . ثم تقدم الأمير طغاى الدوادار فى طائفة من الأمراء الخاصكية ؛ واعتذروا عن هذا المسكين بأنه لم يرد إلا أن يضحك السلطان من كلامه ؛ ولم يقصد عيب الأجناد ولا انتقاصهم ونحو ذلك من القول ؛ إلى أن أمر بحله ؛ فاذا ليس فيه حركة فسُحب . ورسم السلطان بأنه إن كان حيا لايبيت بديار مصر ؛ فأخرج من وقته منفيا . وحمد الله كل من الأمراء على ما وافقه من السكوت عن الكلام فى حال العرض[1] . ويعنى هذا أن رجلا هزليا من عامة الشعب المصرى استطاع بنكتة هزلية لاذعة ، أن يعبر عن صوت الرأى العام وسخطه فى حضرة سلطان مصر فأرجفه وأغضبه ؛ ولم يحرك أحد الأمراء ساكنا ، ولم يهمس ببنت شفه خشية أن يفقد مركزه وماله ، ويتعرض لسوء العقاب والحرمان .

الحق أن العوام بأسلوبهم الفكه ونكتتهم الحاضرة، استطاعوا أن يقوموا بدور الرقابة الشعبية على تصرفات الحكومات المملوكية فى

(١) الخطط : حـ ١ ص ٩٩ .

السياسة والحرب. ففى ٨٣٧هـ (١٤٣٣م.) قاد السلطان برسباى حملة لمحاصرة حصن آمد؛ وطال حصاره؛ ووقع الغلاء وضج العسكر ؛ والسلطان مُصِر على عناده فى محاصرة الحصن ؛ فما كان من العامة إلا أن أشاعوا أغنيتهم « فى آمد رأينا العونه ؛ فى كل خيمة طاحونه ؛ الغلام نهاره يطحن ؛ والجندى يجيب المونه » وسمع الجند بالأغنية وثارت ثائرتهم على السلطان ؛ وقصدوا الوثوب عليه ؛ فبادر بطلب الصلح مع صاحب الحصن ورفع الحصار[1] وكفى الله المؤمنين شر القتال .

وحينما شاعت عادة تغيير العملة وغشها على عهد السلطان إينال غلت الأسعار ؛ وقل الخبز ؛ وشكا التجار والناس ما حل بهم فى المعاملات الفضية الشامية والحلبيه المضروبة لأن نصفها نحاس ؛ وطالبوا النداء بعدم المعاملة بها . ولهجوا بأغنية نصها « السلطان من عكسة أبطل نصفه ؛ وإذا كان نصفك إينالى لاتقف على دكانى » . وأشياء فكهه من هذا كثيرة من غير مراعاة وزن وقافيه ؛ بل تعبير عن عدم الرضا . وانطلقت الألسن بالوقيعه فى السلطان وفى أرباب الدولة ؛ وطغى العامة وتجبروا على قول مؤرخ معاصر .. وتحرج الموقف فأسرع السلطان إينال إلى دعوة قاضى القضاة علم الدين البلقينى والقضاه الأربعة والأمراء والأعيان للنظر فى تلك العمله المغشوشة . ووقف العوام فى تجمعات كبيره فى الشارع الأعظم من

(١) ابن إياس حـ ٢ ص ٢٠ .

باب زويله إلى داخل القلعة ؛ واجتاز بهم قاضى القضاة وهو صاعد إلى القلعة لحضور الاجتماع ؛ فألقى السلام على بعضهم فلم يرد أحد عليه ؛ بل انطلقت الألسن بالسب له والتوبيخ من كل جانب لكونه لايتكلم فى مصالح الشعب . واستمر على هذه الصورة إلى أن صعد القلعة وحضر الاجتماع ، واستجاب حاضروه لصوت الشعب وقرروا إبطال المعاملة بتلك العمله المغشوشه[1] .

واشتدت حاجة السلطان قايتباى إلى المال ففرض ضريبة شهرين على الأوقاف والإملاك التى بالقاهرة ومصر . ثم عاد فأطال مدة جبايتها خمسة أشهر أخر ، وتضرر الناس من جمعها ، وانقطع معلوم الايتام والضعفاء فى رواتبهم ، وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمدارس والترب ، وقطع معلوم الصوفية والصدقات الجارية ، وضاقت الدنيا بالناس ، وليس هناك من صوت يعبر عن بؤسهم وضجرهم سوى بعض المواله فيقول .

غرمت شهرين عن أجرة مكانى أمس
وأصبحت مغموس فى بحر المغارم غمس
أقسم برب الخلايق والقمر والشمس
ماطقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس

(١) منتخبات ح ٢ ص ٢٠٧ و٢٩٤ و ٢٩٩ ر

وكان وكيل بيت مال السلطان قايتباى رجل غير محمود السيرة فى أفعاله ، كثير الظلم والعسف ، يسمى بركات الصالحى ، يشكو ألما فى رجله استمر بها إلى أن مات ، فداعبه بعض الشعراء مداعبه لطيفة أشفت غليل العوام فيه نصها :

بركات زاد الظلم فى أيامه ... وعلى الورى قدجار فى توكيله
وبرجله كان الهلال بعاهة ... فمشى إلى نار الجحيم برجله[1]

وعالج الحلوانية – كما يفعل الكاريكاتور اليوم – مشاكل الشعب، وأبدعوا التعبير عن مشاعر الناس وأحاسيسهم إزاء جور المماليك وظلمهم، فصنعوا حلاوة العلاليق ، وواحدها علاقة على شكل الحيوانات مثل الخيول والسباع والقطط والرجال ، واتخذوا منها مادة للتهكم والسخرية والازدراء على الظالمين، فصوروا مثلاصورة الأمير قوصون أتابك العسكر ومدبر مملكة السلطان حاجبى فى العلاليق ، وقد سمروه وشنقوه لظلمه وأقبل الناس على شرائه ، وانضم إليهم فى التظاهر جماعه من الأمراء ، وحرضوا العوام على اقتحام بيته واحرافة ونهب حواصله ، وما فيها من نحاس وسلاح وصينى وسكر ، وما فى إصطبله من الخيول والبغال ، وقبض خصومه من الأمراء عليه بفضل تأييد العوام ، وأرسلوه تحت

(١) ابن إياس : ح ٢ ص ٢٦٨ و ٢٧٠ .
(٢) شرحه ح ١ ص ١٧٨ و ١٧٩ .

الليل وهو مقيد إلى ثغر الاسكندريه فسجن بها ، وفرح الناس وأقاموا الزينات ، وسجل بعض شعرائهم هذا الشعور فى تصور بديع منه :

شخص قوصون رأينا   فى العلاليق مسمَّر

فعجبنا منه لمـــا   جاء فى التسمير سكر

لا عجب أن يحاول كل حزب من الأحزاب المملوكية التقرب إلى العوام واكتساب تأييدهم واستغلال نكاتهم وشائعاتهم وتجمعاتهم فى النيل من الخصوم والوصول إلى الحكم والسلطان، ومن أمثلة تلك المواقف السياسية التى قام العامة فيها بدور بارز فعال، ما شهدته القاهرة عام ٧٨٢هـ (١٣٨٠م.) من اتفاق حزبى الأميرين برقوق وبركة، بحيث أصبحا صاحبى الأمر والنهى فى الدولة ، وصور هذا الاتفاق العوام فى أغنيتهم « برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة » مما أثار الضغينة والحقد فى نفوس الأحزاب الأخرى ، وعملت على الإيقاع بين الحزبين الحاكمين . ووقعت الفتنة الدموية بينهما وانتهت بإبعاد بركة عن الميدان السياسى ، وإحلال حزب الأمير يلبغا الناصرى محله : واشتد ساعد الحزب الناصرى ، وحاك الدسائس والمؤامرات ضد برقوق وأنصاره ، وأبعدهم عن الحكم ، وانفرد به الناصرى ومماليكه وسجل العامة هذا التغير فى فكاهة لطيفة . تغنوا بها وهى «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصرى وتيرانه » . . واستبد الناصرى

بزملائه الأمراء وبالناس حتى انشق عليه الأمير منطاش سنة ٧٩١هـ (١٣٨٨م.) ولم يجد أمامه من وسيلة لإسقاط الناصرى والتخلص منه سوى اللجوء إلى العامة والتقرب إليهم بالعطايا والتمنيات والقول المعسول «أنا واحد منكم، وأنتم إخواننا وأصحابنا» وأشياء كثيرة من هذه المقولة حتى تمكن من النصر والثبات فى المعركة ، والعامة تمسك من وجدوه من الترك ويقولون له « ناصرى أم منطاشى » فإن قال ناصرى أنزلوه من على فرسه وأخذوا جميع ما عليه وأتوا به إلى منطاش » . وبذا انتصر المنطاشية على الناصرية على قول أبى المحاسن[1] بفضل تأييد العامة لهم

ما أعجب هذا الشعب . وما أقدره على تفهم نفسيه حاكميه . يشد أزرهم ويتجاوب معهم إذا أحسنوا معاملته وحملوا أمانة الحكم بأخلاص، فإذا ما انقلبوا إلى طغاة جبارين وقف منهم موقف السلبية القاتله، ساخراً بهم مبتدعا النكتة اللاذعه المعبرة ، يطلقها بين الحين والآخر فى كل مناسبة سياسية أو اجتماعية؛ حتى تهبط عليه رحمة ربه بمعجزة الخلاص من جلاديه وظالميه ، ولسان حاله يردد قوله تعالى :

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

---

(١) راجع : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٣٠ و ٢٦٢ و ٢٧٦ و ٣٢٢ و٣٣٣ و٣٣٨ .

المراجع

ابن إياس (٩٣٠ هـ) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور .
بولاق ١٣١١ هـ

ابن بطوطه (٧٧٩ هـ) : تحفة النظار فى غرائب الامصار
وعجائب الأسفار. القاهرة ١٩٣٣ م .
القاهرة ١٣٢٤ هـ .

ابن الجيعان (٨٥٥ هـ) : التحفة السنيه بأسماء البلاد المصرية .
طبعة ١٨٩٨ م .

ابن خلدون (٨٠٦ هـ) : المقدمة . طبعة ١٩٣٠ م .

ابن زنبل (٩٦٠ هـ) : آخرة المماليك ـ الدار المصرية للطباعة والنشر

ابن طولون (٠٠٠) : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان .
القاهرة ١٩٦٢ م .

ابن العماد الحنبلى (٦٦٠ هـ) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
القاهرة ١٣٥٠ هـ .

أبو المحاسن (ابن تغر بردى) (٨٤٧هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
القاهرة ١٩٣٠ م .

: وطبعة وزارة الثقافة .

: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى .
ج ١ طبعة دار الكتب .

: منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام
والشهور . كليفورنيا ١٩٣٠ م .

توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى .
القاهرة ١٩٤٦ م .

الجبرتى (١٨٢٥ م.) : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار طبعه ١٣٢٢هـ.

: يوميات الجبرتى. سلسلة اخترنا لك رقم ٥٩و٦٠

السخاوى (١٤٤١م) : التبر المسبوك فى ذيل السلوك بولاق ١٨٩٦م .

رشيد الدين (١٣١٩م.) : جامع التواريخ القاهرة ١٩٦٠ م.

صبحى وحيده : فى أصول المسأله المصرية القاهرة ١٩٥٠ م.

على مبارك : الخطط الجديدة التوفيقية

على وافى : عبد الرحمن بن خلدون . سلسلة أعلام العرب

المقريزى (٨٤٥ هـ.) : السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر زياده وطبعة
دار الكتب المصرية .

: المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

: أغاثة الأمة بكشف الغمه القاهرة ١٩٥٧ م .

نظر حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية القاهرة ١٩٥٣م .

: تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى القاهرة ١٩٥٨ م .

تصــــويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	حاشية ١	ابن حجر	ابن تغر بردى
٢٩	١٢	مقنعا	مقننا
٣٣	حاشية ٢	الغربية	العربية
٣٦	١٧	بعترض	يعترض
٤٣	١٥	أحدات	أحداث
٤٤	١	الفلبى	القلبى
٤٤	٩	المفريزى	المقريزى
٤٩	٨	تعديبه	تعذيبه
٥٧	٧	أعطوهم	أعطوها
٦٣	١١	عمانم	عمائم
٦٣	٨	وأرادوانه	وأردوانه
٦٤	٤	(٢)	(١)
٦٦	١١	الفوغاء	الغوغاء
٦٨	٣	خشدوم	خشقدوم
٦٨	١٤	السلطن	السلطان
	١٧	الدول	الأول
٧٠	١١	بزنظه	بيزنطة
٧١	١	وكيفا	وكيفما
٧١	٩	تصريح	تصريخ
٧٣	٤	تفر بردى	تغر بردى
٧٤	٦	الجياده	الجياد
٧٦	٦	لوعظ	الوعظ
٧٨	٤	والزبت	والزيت
٨٠	١٥	بطارتها	نظارتها
٨٦	٥	لله	الله
٨٧	٤	بالقياس	بالمقياس
٩٥	٧	الشهبر	الشهير
١٠٦	١٣	م	و
١١٢	١٧	وإلى	إلى
١٢٣	١٣	المعووفين	المعروفين

كتب للمؤلف

١ — نظام البريد فى الدولة الإسلامية . طبعة ١٩٥٣

٢ — التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى. طبعة ١٩٥٧

٣ — تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى طبعة ١٩٥٨

٤ — جيش مصر فى أيام صلاح الدين . الطبعة الثانية ١٩٥٩

٥ — الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى . طبعة ١٩٦١

٦ — المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى . طبعة ١٩٦٢

٧ — الشيخ عيسى . قصة جندى عراقى بجيش صلاح الدين .
الطبعة الثالثة ١٩٦٤

٨ — الاشتراكية العربية والتطور الاشتراكى . طبعة ١٩٦٤

تطلب من مكتبة النهضة المصرية

بشارع عدلى رقم ٩ بالقاهرة